

الإمام الفضيل بن عياض.

معالم الشخصية، والدور التربوي، والمجتمعي والديني

إعـــداد

د/ عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة





الإمام الفضيل بن عياض

معالم الشخصية والدور التربوي والمجتمعي والديني

عبد الرافع عبدالحليم السيد الفقي

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية– كلية الدعوة الإسلامية – جامعة الأزهر الشريف

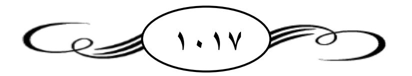
البريد الالكتروني: abdelrafeeabdelhaleem

الملخص: في تاريخنا الإسلامي الاف من القدوات التي تركت بصماتها الرائعة في النفوس والمجتمع، وخلدت مواقفهم وآثارهم في التربية للقلوب ووصلها بربها المنعم الكريم واصلاحها للواقع وفانيها في خدمة الأمة والحفاظ على حقائق الدين خلدت ذكراهم ونحتاج دائما إلى مدارسة سيرهم وكلامهم ومواقفهم، لنتزكى بها ونقوم بحق دعوة الله وأمتنا وأوطاننا وقلعة الإسلام: الأزهر الشريف

ومن هؤلاء الائمه: سيدنا الفضيل المربى، القوال للحق، الفعال للمكارم، التقي، النقي، – رحمه الله–

لذا قمت بدراسة هذه الشخصية والتنقيب عن مجالات الاتساء بها في حياتنا تربويا، واجتماعيا، ودينيا، وقد تكون البحث من مقدمة واربعة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: عن سمات تميز بها الامام في علاقته بربه ومولاه من قوه خشيته له وإخلاصه له وحذره من الرياء ومظاهره ورضاه عن أقدار ربه واهتمامه العظيم بأمر اخرته وحساب الله له



والفصل الثاني عن اخلاقه التي اهلته للإمامة حيث تواضعه وانكساره لجلال الله وعظمته وخلو قلبه من كل كبر وزهده القوى في الدنيا وهوانها في نظره وحرصه على الاقتداء ونشر سير الصحابة والتابعين للعمل بهديهم.

اما الفصل الثالث: فكان متعلقا بدوره التربوي والمجتمعي، حيث التزكية والإعداد الروحي والخلقي والعملي لطلابه وسامعيه ونصحه لإخوانه العلماء وتقديمه تجاربه للمجتمع، تعلما وإرشادا وإدراكه اهميه الحاكم الصالح المصلح في تقدم الأمه ونهضتها

والفصل الرابع: تناول دوره الديني في تعظيم السنه وتعليمها وإحياء العمل بها و محاربة البدع الهادمة لحقائق الإيمان في الإسلام والمشوهة له.

وتبع الفصل الرابع ذكر لأبرز تلاميذه وبعض اقوال مثنيه و مادحه للإمام الفضيل رحمه الله ثم كانت الخاتمة وفيها اهم النتائج واقتراحات و مراجع البحث و فهرس الموضوعات.

الكلمات المفتاحية : التاريخ – الإسلام– التربية

Imam Al , Fadil Bin Iyadh

Personal features and educational, community and religious role

Abdul Rafi Abdul Halim Al-Sayed Al-Fiqi

Department of Islamic Advocacy and Culture - Faculty of Islamic Da'wa - Al-Azhar University

Email: abdelrafeeabdelhaleem

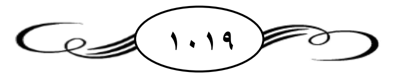
Abstract:

In our Islamic history, thousands of role models have left their wonderful mark on souls and society, and their attitudes and effects in the education of hearts have been immortalized, and they have been connected to the Holy Lord and their reform of reality and its mortality in the service of the nation and the preservation of the realities of religion immortalized their memory and we always need schools of their conduct, words and consent, to remember them and to rightly pray to God, our nation, our homelands and the citadel of Islam: Al-Azhar al-Sharif.

Among these imams are: Our Holy Master, the jam, the sayings of truth, the effectiveness of the honorable, the pious, the pure, - May God rest his soul-

So I studied this character and explored the areas of abuse in our lives educationally, socially, and religiously, and the research may be from an introduction, four chapters and a conclusion.

Chapter ١: About the features that the Imam distinguished in his relationship with his Lord and financed him from the power of his fear for him and his devotion to him and warned him against showing off and his manifestations



and satisfaction with the fates of his Lord and his great interest in the matter of his afterthought and god's account of him

The second chapter is about his morals, which qualified him for the Imamate, where he humbled him and his break with The Majesty of God and his greatness, and his heart was free of all the greatness and pride of the powers in the world, and his humiliation in his eyes and his keenness to follow the example and spread the biographies of the companions and followers of the work in their guidance.

The third chapter was related to its educational and societal role, where the recommendation and the spiritual, moral and practical preparation of his students and his listeners and advised him to his fellow scholars and present his experiences to society, learning, guiding and recognizing the importance of the good ruler reformed in the progress and renaissance of the nation

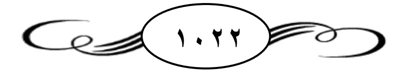
Chapter ٤: Address his religious role in maximizing the Sunnis, teaching them, reviving their work, and fighting the destructive innovations of the truths of faith in Islam and distorting it.

The fourth chapter was followed by a mention of his most prominent disciples and some of the sayings of Muthanna and his praise to imam Al-Fadhil, may God rest his soul, and then the conclusion was the most important results, suggestions, references to research and index of topics.

Keywords: History - Islam - Education



المقدمة





الحمد لله ، رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد .

"فإن الإسلام – كسائر رسالات السماء – يعتمد في إصلاحه العام، على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء ، فهو يكرس جهوداً ضخمة ، للتغلغل في أعماقها ، وغرس تعاليمه في جوهرها ، حتى تستحيل جزءاً منها".

هكذا ، يعلمنا الإمام المربي محمد الغزالي ، ويبين أن "النفس الصالحة هي البرنامج المفصل لكل إصلاح ، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة .... ".

إن الإصلاح النفسي (القلبي) هو الدعامة الأولى ، لتغليب الخير في هذه الحياة .

لذا نجد النفس المختلة "تثير الفوضى في أحكم النظم ، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة !.

والنفس الكريمة ، ترقع الفتوق في الأحوال المختلة ، ويشرق نبلها من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير ، وسط الأنواء والأعاصير" [(١)].

لذا ، كان القرآن ، – وما زال – يعلّم الدنيا أن الطريق الوحيد للفلاح والتغيير في الواقع سبيله الوحيد هو إصلاح النفس والقلب ، فقال ربنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) . وقال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) الشيخ محمد الغزالي ، "الإنسان بين الخير والشر" ، مجلة الأزهر ، ج٣ ، س٩٥ ، ربيع الأول ١٤٢٣هـ = أكتوبر – نوفمبر ٢٠٢١م ، ص٣٩٢ ، ٣٩٣ .



سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٥٣) . وقال عن النفس : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ٩ ، ١٠) .

وصدق نبي الإسلام - ﷺ - حين حسم قضية الإصلاح ومبدأها ومنتهاها فقال :"إن في الجسد مُضغةً ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألاَ وهي القلب" ! .

لذا رزق الله أمة الإسلام علم التصوف ، أو علم الإحسان والتزكية ، أو علم السلوك ، علم "يرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى ، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله ، وإلهامها ، كيف تستعد للقيادة ، ببصيرة مجلوّة ، ورغبة عميقة ، وثغر باسم !" [(١)].

علم يسعى إلى "جعل القلب متعلقاً بربه ، يملك الدنيا ، كي يسخرها لخدمته ، ويجمع المال والبنين ، ليكونا قوة للحق ، وسياجاً يحتمي بهما"![(٢)].

وقد قام بهذا العلم ، وأدى حقه آلاف من علماء أمتنا الإسلامية ، - وما زالوا - ، زكوْا به نفوساً ، وطهروا به قلوباً ، وحسنوا به أخلاقاً ، وعالجوا به أوجاعاً ، وقادوا الأمة إلى المعالي ، والحرية ، وأنهضوها من عثراتها وكيد أعدائها ، ومن قادة هذا العمل العظيم والجهاد الكبير في كل الميادين ، الإمام الفضيل بين عياض ، - رحمه الله ورضي عنه - .

وهذا بحث عن الإمام الفضيل ، أقف فيه على معالم شخصيته ودوره التربوي والمجتمعي والديني ، لنتعلم منه ونقتدي به في دعوتنا إلي الله وإصلاح واقعنا.

---

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب" ، الشيخ الغزالي ، ص١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤ ، ٥ .



وقد اتبعت في كتابة بحثي المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي .

- وقد قسمت البحث إلى مقدمة ، وتمهيد، وثلاثة فصول ، وخاتمة .

أما التمهيد فيحتوي على إطلالة على نشأة الإمام الفضيل وأسرته، وأبرز شيوخه، وتلامذته، وثناء كبار من الصحابة والتابعين عليه.

- والمقدمة تحتوي على أهمية الدراسة ومنهج البحث وخطته.

- الفصل الأول، عنوانه: معالم شخصيته. -رحمه الله تعالى-.

وقد احتوى على مبحثين:

المبحث الأول: تميز الإمام في خشيته لله وإخلاصه له، وتدبره للقرآن واهتمامه بآخرته.

وقد احتوى على خمسة مطالب :-

١- قوة خشيته لربه ، ومحاسبة نفسه .

٢- إخلاصه لله وحذره الدائم من الرياء ومظاهره .

٣- رضاه العجيب عن أقدار ربه ، وحبه له .

٤- تدبره للقرآن ، وانتفاعه وتأثره به .

٥- اهتمامه بأمر الآخرة ، وحساب الله له .

- المبحث الثاني : أخلاقه التي تميز بها :

ويحتوي على ثلاثة مطالب :

١- تواضع الإمام – رحمه الله – .

٢- زهده و هوان الدنيا في قلبه .



٣- اقتداؤه بالسابقين من صحابة ، وتابعين .

- الفصل الثاني: دوره التربوي والمجتمعي :

ويحتوي على سبعةِ مباحث :

١- التربية العملية لطلابه وسامعيه .

٢- تنبيهه إلى أهمية العلم وآدابه والعمل به .

٣- نصحه لإخوانه العلماء .

٤- ضرورة التفكر ومراجعة النفس والحال .

٥- تقدير الصحبة ، ورعاية حقوق الأخوة .

٦- تقديمه تجاربه للمجتمع ، تعليماً وإرشاداً .

٧- إدراكه أهمية الحاكم الصالح ، ونصحه له .

- الفصل الثالث: دوره الديني في تعظيم السنة والصحابة ، ومحاربة الابتداع في الدين :

ويحتوي على ثلاثة مباحث :

١- تعظيمه للسنة والصحابة ، وضرورة الاتباع .

٢- بيانه حقيقة الإيمان ، وصفات المؤمن ، ورده على ضلال المرجئة .

٣- التحذير من الابتداع والمبتدعة وأثارهم الخطيرة .



الخاتمة

– تناولت فيها أهم نتائج البحث ، مع اقتراح لأمور أراها جديرة بالعناية ، فيما يتعلق بدراسة تاريخنا الدعوي والتربوي . عند أئمتنا وروادنا في هذا المجال، الذي لا إصلاح بدون التركيز عليه في مجالات التربية والتعليم والإعلام ، والوعظ ، وشئون الحياة كلها .

– وفي نهاية هذا الجهد المزكي للنفس في سيرة علم من أعلام التزكية ، أدعو الله أن ينفعني به ، وأن يجزي إمامنا الفضيل عنا وعن الأمة خير الجزاء . وأن يحشرنا معه تحت لواء النبي – ﷺ – يوم الحشر . وأن يظلنا في ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله . اللهم آمين .

سبحانك ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي



التمهيد

اطلالة على نشأة الإمام وأسرته، وأبرز شيوخه، وتلامذته، والثناء عليه.

هو أبو علي ، الفضيل بن عياض ، بن مسعود ، بن بشر ، التميمي ، ثم اليربوعي ، ولد بخراسان وقيل بسمرقند ، وقيل في بخاري ، وقيل غير ذلك ، ونشأ بأيبورد . قدم الكوفة ، وهو كبير.

فسمع بها الحديث من أئمة كبار ، ثم تعبد وانتقل إلى مكة المكرمة، وكانت وفاته بمكة المكرمة.

إن الفضيل نشأ في بيت علم وتقوى ، لكنه غفل فترة ، ورزقه الله توبة نصوحاً ، وأقبل على الله ، فحفظ القرآن ، وتعلم الحديث ، ثم رحل إلى الكوفة ، موطن أجداده ، فسمع الحديث ، وأخذ عن عدد من الشيوخ والمربين .

وتعبد وتزهد ، وذهب إلى الحرم وجاور هناك (١) .

– أما قصة توبته المشهورة ، في مرحلة من حياته ، غفل فيها ، ثم كانت الإفاقة واليقظة ، فخلاصتها أنه كان يقطع الطريق ، فبينما يرتقي جدران بيت ، سمع تالياً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ....﴾ (سورة الحديد :١٦). فخشع وقال : "بلى ، آن يارب" . وأوى إلى خربة ، فإذا فيها رفقة ، يقول بعضُهم : "نرتحل" . ويقول آخرون : "حتى نصبح ، فإن فضيلاً على الطريق ، يقطع علينا !". فأمَّنهم الفضيل وأعلمهم توبته . وقال لهم : "يا قوم ، جوزوا ، والله لأجتهدن أن لا أعصي الله" . وفي رواية أنه قال :"ففكرت ، فقلت : أنا أسعى بالليل في المعاصي ، وقوم من المسلمين يخافوني ههنا !. وما أرى الله سائقيَّ إليهم ، إلا لأرتدع . اللهم

(١) "تاريخ الإسلام ، ووفيات المشاهير والأعلام" ، للذهبي ، ط المكتبة التوفيقية ، ١٩٣٧م ، ج١٢ ، ص١٨٥ .



إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام" (١).

هذه القصة المذكورة في كتب أهل التصوف وغيرهم ، يراها البعض أسطورة ، غير حقيقية . من جنس القصص التي تروى عن توبة الخراسانيين التي بعدها يبدأ زهدهم ، ويرونها "دراما" يصنعها مؤرخو التصوف ، يفتعلون فيها انحرافاً عن مجرى الحياة العادية من البشر ، ليعلو قدرهم ، ويرفعوا الصوفي عن مستوى الناس العاديين ! (٢). ولست موافقاً لأصحاب هذا الزّعم ، وهؤلاء الصوفية الكبار بعلمهم وتقواهم وجهادهم لا ينتظرون خرافة أو قصة مفتعلة ، لاصطفاء الله لهم ، واجتبائهم . فحياتهم الجادة ، المستقيمة العظيمة أوضح برهان على علو قدرهم !.

وقد أقبل الفضيل على العلم والتزكية به بقوة ، ورزقه الله ذاكرة قوية وفطنة نفاذة ، بحيث يسهل عليه حفظ أسانيد الحديث ومتنها ، وتعقل وفهم ما يتلقاه بمتعة ولذة ، وكان لذلك أثره التربوي الأخلاقي عليه .

وكما يقول الإمام شيخ الأزهر د عبد الحليم محمود ، – رحمه الله:"برع الفضيل في الحديث ، ونقله الحديث من جو التوبة الساذجة إلى جو التوبة التي شقَّت بالحديث ، وسمت بمعرفة كيفية المتابعة لرسول الله ، – ﷺ – " ، وتابع الإمام د/ عبد الحليم بيان أثر درس الفضيل الحديث النبوي" ، لقد أصبحت توبته على بصيرة ، ووجهته هذه المعرفة ، ونِعم

---

(١) "شرح الرسالة القشيرية" ، للشيخ زكريا الأنصاري ، الدروبي ، دمشق ، ج١ ، ص٧٦ ، ٧٧ . و"طبقات الصوفية" ، للسلمي ، تحقيق نور الدين شريبة ، القاهرة ، ط٣، ١٤٠٦هـ ، ص٦ .

(٢) انظر : "الزاهد التقي ، الفضيل بن عياض ، دراسة بموقع "الألوكة" ، واستدل الكاتب بمن أيده في رؤيته ، ولستُ موافقاً له في زعمه .



بعبادته ، فاستغرق فيها ، ونعِم بالمعرفة فاستغرق فيها" (١).

ولخص حياة الفُضيل ، بقوله :"لقد سارت حياة الفضيل على هذا النسق : توبة خالصة نصوح ، حياة مادية مجهدة ، ولكنها راضية حامدة .

– اتباع دقيق لسنة رسول الله ، – ﷺ – ، وبغض واضح لأصحاب البدع" (٢).

– لقد عاش الفضيل في مكة ، مستقراً ، هانئاً ، فقد تزوج ، وكان له أبناء : على ، وهو الكبير . وكان من العباد الأتقياء ، اعتنى به أبوه ، ووجَّهه للصلاح والعلم ، والورع ومكارم الأخلاق ، ومات قبل والده (٣). ومن أولاده : أبو عبيدة ، وكان من الثقات (٤).

وله محمد وعمر (٥).

وكان للإمام الفضيل خادم محب له ، من أهل العلم ، تلقى عنه ، وأصبح من أشهر تلاميذه ، الذين رووْا عنه ونقل للأمة أكثر أخباره وأحواله،

---

(١)"الفضيل بن عياض ، صوفي من الرعيل الأول" ، د/ عبد الحليم محمود ، ط٢ ، ٢٠٠٠م ، عربية للطباعة والنشر ، ص١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٤ .

(٣) "سير أعلام النبلاء" ، للذهبي ، تحقيق محمود شاكر ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ، دار إحياء التراث العربي ، ج٦ ، ص٣١٢.

(٤) "ميزان الاعتدال ، في نقد الرجال" ، للذهبي ، تحقيق محمد علي البجاوي ، ط١ ، ١٣٨٥هـ ، دار المعرفة ، بيروت ، ج٣ ، ص٣١٩ .

(٥) "تاريخ مدينة دمشق" ، لابن عساكر ، تحقيق محب الدين العمري ، دار التفكير ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ج٤٨ ، ص٣٨٠ .



وعلمه وأخلاقه [١]. هو إبراهيم الأشعث ! .

وقد كان للإمام بعير ، يستعمله للركوب ، والعمل به في سقى الناس ، كسباً للرزق ، والمعيشة .

إنه – رحمه الله – كان يعيش من عمل يده ، من كسب طيب لا شبهة فيه ، ورفض الآلاف المؤلفة من الأموال ، حين عرضها عليه الأمراء والأثرياء .

إنه رفضها عفة ، وورعاً ، وعزة نفس كريمة ، وخشية من الله – تعالى ، أن يدخل جوفه لقمة حرام أو فيها شبهة حرام ، أو شيئاً من منة أحد عليه ! [٢].

وقد مات الفضيل عام ١٨٦هـ . وله نيف وثمانون سنة [٣].

---

(١) "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" ، لأبى نعيم ، أحمد بن عبد الله ، الأصبهاني ، ط دار الفكر للطباعة ، د/ت ، ج٨ ، ص٨٥ .

(٢) "تاريخ مدينة دمشق" ، مرجع سابق ، ج٤٨ ، ص٣٨٠ ، ٤٣٢. ود/ عبد الحليم محمود ، "الفضيل بن عياض ، صوفي من الرعيل الأول .." ، ص١٥ .

(٣) "سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٤٨ .



ابنه : على بن الفضيل

رفيق أبيه في العبادة والخشية

حكى أبوه موقفاً مع ابنه ، فقال : "بكى ابني عليّ" . فقلتُ : "يا علي ، ما يبكيك ؟". قال على : "يا أبةِ ، أخاف ألا تجمعنا القيامة" .

وكان على يصلى من الليل ، حتى يزحف إلى فراشه ، ثم يلتفت إلى أبيه ، ويقول : "يا أبةِ ، سبقني العابدون" . ومرة سمعه أبوه في صحن الدار ، يقول : "النار ، ومتى الخلاص من النار ؟" . وقال لأبيه : "سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة" . وقال عنه أبوه : لم يزل منكسر القلب حزيناً " . وقال الفضيل : "كان يساعدني على الحزن والبكاء . يا ثمرة قلبي ، شكر الله لك ما قد علمه فيك " (١).

وصدق سفيان الثوري في شهادته على منزلة وحال الفضيل وابنه ، حين قال : "ما رأيتُ أحداً أخوف من الفضيل وابنه" (٢). وكان عليٌّ ، – كما جاء في سير أعلام النبلاء – : "رجلاً قانتاً لله خاشعاً ، وجلاً ، ربانياً ، كبير الشأن" (٣).

– ومن أمثلة تأثر على بن الفضيل ، بالقرآن وخشوعه لله ، أنه – مرة – صلى الصبح ، فقرأ الإمام سورة "الرحمن" ، فلما قرأ : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ ، خر عليٌّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قيل له : أما

---

(١) "سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٢) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٤ . و"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٤٤ .

(٣) انظر ، " سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٤٣ .



سمعت الإمام يقرأ ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾. (الرحمن : ٧٢) قال على : شغلني عنه : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن : ٤١) (١) ومرة صلى الفضيل إماماً ، فقرأ "الحاقة" ، في الصبح ، فلما بلغ إلى قوله : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ . (الحاقة : ٣٠) . غلبه البكاء ، فسقط ابنه على ، مغشياً عليه (٢).

وكان على إذا قرأ القرآن يبكي ، حتى لا يكاد يقدر على إتمام السورة ، ويقول : "إني لأتعجب ممن يفرح كلما ختم القرآن تلاوة ، ولا يطالب نفسه بشيء من مواعظه وزواجره ، وقوراعه". وكان لا يستطيع أن يقرأ "القارعة" ، ولا تقرأ عليه .

وقال : "من لم يبك على نفسه عند تلاوة القرآن ، فهو مغرور ، لأن المراد منه العمل ، لا التلاوة" (٣). وقد مات على ، بسبب آية سمعها تقرأ وهي قوله – تعالى – في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾. (الأنعام : ٢٧) ، فغشى عليه ، وتوفي في الحال (٤).

وما أجمل حوار الفضيل مع ابنه علىّ في أهمية أكل الحلال ، والصدق في معاملة الله ، فقد قال الأب الفضيل : "لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق ، وطلب الحلال" .

فقال ابنه على : "يا أبتِ ، إن الحلال عزيز !".

---

(١) "زاد المسير في علم التفسير" ، لابن الجوزي ، ج٤ ، ص٢١٣ .

(٢) " سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٣) الإمام عبد الوهاب الشعراني ، "تنبيه المغتربين" ، تحقيق وضبط د/ أحمد عبد الرحيم السائح ، والمستشار توفيق وهبة ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠٥م .

(٤) " سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٤٣ ، ٤٤٦ .



فرد الأب مؤكداً كلام ابنه ومضيفاً :"يا بني ، وإن قليله عند الله كثير" ! [1].

وبين الفضيل بين عياض أن من علامات كون العبد من الصديقين حرصه على تحري الحلال ، وما يدخل جوفه حراماً ، فقال :"من عرف ما يدخل جوفه ، كان عند الله صديقاً ، فانظر من أين يكون مطعمك يا مسكين !" [2].

وفي رواية :"ومن لم يصحبه الورع في فقره أكل الحرام المحض ، ولا يشعر" [3].

وقد شهد سيدنا بشر للفضيل وابنه بشدة تحريهم لأكل الحلال ، فقال :"كان عشرة ينظرون في الحلال النظر الشديد ، لا يدخل بطونَهم إلا حلال ، ولو استفوا التراب".

وذكر منهم علياً بن الفضيل ، الذي كان قوي الورع ، وذكرت عنه مواقف عديدة في ذلك . وكان على كثير التصدق ، وأصابت الكوفة مجاعة وغلاء ، فكان يتصدق بطعامه [4].

واشتهر على ، بأنه من رواة وحفظة الحديث الشريف ، فقد أسند عن عبد العزيز بن أبى رواد ، وسفيان بن عيينة ، وغيرهم . – رضي الله عنهم – [5].

(١) "سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٤٣ .
(٢) "الطبقات الكبرى" ، ج١ ، ص٥٩ .
(٣) "تنبيه المغتربين" ، ص٢٥١ .
(٤) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٠ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٢٦ ، ٤٤٦ .
(٥) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٣ .



وحدث عنه جماعة ، منهم : سفيان بن عيينة ، وموسى بن أعين . وغيرهم . وكان ثقة ، مأموناً (١).

ومن إصلاحه لحال ابنه علىّ ولفته إلى ضرورة التواضع ، وترك الزهو والكبر ، ووجوب الانكسار لجلال الله وتعظيمه ، ما قاله عندما بلغه أن علياً يقول :"وددت أني بمكان أرى الناس ولا يرونني" . فغضب الأب الفضيل ، وقال : "ويح على ، أفلاَ أتمَّها فقال : لا أراهم ولا يرونني".

ثم قال له : "لعلك ترى أنك شيء !!". وفي رواية "على شيء ، الجُعل أطوع لله منك" ! (٢).

عبيدة بن الفضيل

كان الفضيل يحب ابنا له ، سماه ،"أبا عبيدة" ، ويعلن عن حبه له، لسبب ذكره في قوله :"إني لأحبه ، وأحبه ، لأنه جاءني على كبر" ! (٣).

---

(١) "سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٦ .

(٢) "تنبيه المغتربين" ، ص١٤٩ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٨ . والفضيل بن عياض ، صوفي من الرعيل الأول" ، مرجع سابق ، ص١٦ .

(٣) المرجع السابق ، د/ عبد الحليم محمود ، ص١٦ .



أبرز شيوخ الفضيل – رحمه ، ورحمهم الله –.

١- عطاء بن السائب . أبو محمد ، أو أبو السائب الثقفي ، من ثقات التابعين وعلمائهم .

٢- أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت ، مفتي الكوفة وعالمها الأكبر ، ولد سنة ٨٠هـ .

٣- وهيب بن الورد القرشي ، أبو عثمان المكي ، الزاهد ، روى عن عطاء وآخرين ، وروى عنه الفضيل وابن المبارك .

كان واعظاً مؤثراً ، وفقيهاً متمكناً ، ثقة ، قال عنه ابن المبارك :"كان يتكلم ودموعه تقطر" . مات عام ١٥٣هـ .

٤- الأعمش . سليمان بن مهران الكاهلي ، الكوفي ، أحد كبار الحفاظ ، والقراء المشهورين . كان أعلم وأحفظ وأقرأ طبقته ، اشتهر بلقب "المصحف" لصدقه وإتقانه !. مات عام ٢٤٨هـ .

– ومن شيوخه : جعفر الصادق ، وحميد الطويل ، ويحي بن سعيد الأنصاري ، وصفوان بن سليم ، ومحمد بن عجلان ، وآخرون [١].

(١)"تهذيب التهذيب" ، لابن حجر العسقلاني ، ط دار الفكر ، ج٨ ، ص٢٦٤ .



أبرز تلاميذه

١- الإمام عبد الله ابن المبارك . أبو عبد الرحمن ، بن واضح ، شيخ الإسلام ، عالم زمانه ، الحافظ ، الغازي ، ولد عام ١١٨هـ ، وتوفى عام ١٨١هـ[١] .

٢- الإمام الشافعي . محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ، القرشي المطلبي ، المكي ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ومؤسس المذهب الشافعي . – رحمه الله – توفى عام ٢٠٤هـ[٢] .

٣- سفيان بن عيينة بن أبى عمران الهلالي ، أبو محمد ، الكوفي ، ولد عام ١٠٧هـ ، وتوفى عام ١٩٨هـ[٣] .

٤- مسدد بن مسرهد ، بن مسربل . أبو الحسن ، الحافظ الحجة ، من كبار الأئمة الأثبات المصنفين . توفي عام ٢٢٨هـ[٤] .

---

(١) هو عبد الله بن المبارك، بن واضح، الحنظلي، السخي الجواد، أليف القرآن والحج والجهاد، الحافظ الزاهد. روى عنه أئمة كثيرون، توفي عام ٨١هـ، عن ثلاث وستين سنة. أنظر "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، ج٨، ص١٦٢: ١٦٨.

(٢) هو محمد بن ادريس، ولد عام موت أبي حنيفة، بغزة، بفلسطين، ونشأ بمكة، ومات بمصر، عام ٢٠٤هـ، مناقبه جليلة كثيرة. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١٠، ص٩٩.

(٣) هو سفيان بن عيينة، بن أبي عمران، أبو محمد، الكوفي، نزيل مكة، ولد عام ١٠٧هـ، إمام، حافظ، ورع، لقب بـ "أمير المؤمنين في الحديث"، توفي عام ١٩٨هـ، انظر "تاريخ بغداد"، ج٩، ص١٧٤.

(٤) هو الحافظ، أبو الحسن، مسدد بن مسربل، البصري، روى عنه البخاري وأبو داوود، مات عام ٢٢٨هـ. انظر "طبقات الحنابلة"، ج١، ص٣٤١.



ثناء كبار ، من صحابة وتابعين عليه

أثنى كثر من الصحابة والتابعين على الإمام الفضيل . من هؤلاء : ابن عمر الذي أثنى عليه بقوة عبادته ، فقال : ما رأيتُ بعد الفضيل أعبد من وكيع" (١).

وقال خادمه وتلميذه لأقرب إبراهيم بن الأشعث :"ما رأيتُ أحداً ، كان الله في صدره أعظَم من الفضيل ، كان إذا ذكر الله ، أو ذُكر عنده ، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، وبكى ، حتى يرحمه من بحضرته ، وكان دائم الحزن ، شديد الفكرة" (٢).

وشهد أئمة الحديث والفقه والتاريخ للفضيل بالإمامة والتميز في العبادة والورع والصدف وتمام الثقة في حديثه ، وغير ذلك من خلال الكمال والجمال .

ومن أوائل هؤلاء الإمام عبد الله بن المبارك ، الذي قال عن الفضيل :"ما بقى على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض" (٣).

أما القاضي شريك فقد قال :"لم يزل لكل قوم حجة في زمانهم ، وإن الفضيل بن عياض حجة لأهل زمانه" (٤). وقد قبَّل سفيان بن عيينة يد

---

(١)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٨ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٨٤ . و"سير أعلام ..." ، ج٦ ، ص٣٠٣ ، ٣٠٤ . و"تهذيب الكمال" ، للمزي ، ط الرسالة ، ج٢٣ ، ص٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٣)"سير أعلام ..." ، ج٦ ، ص٣٠٣ .

(٤)"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ، لابن العماد الحنبلي ، ط مكتبة القدس ، ١٣٥٠هـ ، ج١ ، ص٣١٧ .



الفضيل مرتين ، ذكر ذلك إبراهيم بن الأشعث ! [1].

وابن سعد ، المؤرخ ، قال عن الفضيل :"كان ثقة ، ثبتاً فاضلاً ، عابداً ، ورعاً كثير الحديث" [2].

أما الإمام الذهبي فقد وصف الفضيل بصفات عظيمة وخلال جليلة في أكثر من كتاب ، تنويهاً وتعظيماً بشأنه ، فجاء عن الفضيل في "ميزان الاعتدال" :"كان سيداً ، عابداً ، ورعاً ، زاهداً ، إماماً ، ربانياً ، عالماً فقيهاً" . وقوله :"فضيل بن عياض ، الزاهد ، شيخ الحرم ، وأحد الأثبات ، مجمع على ثقته وجلالته ، فالفضيل من مشايخ الإسلام" [3].

وقال عنه في :"تذكرة الحفاظ" :"وكان إماماً ربانياً صمدانياً ، قانتاً زاهداً ، عابداً ، ثقة ، كبير الشأن" [4].

وابن كثير أثنى عليه ، فقال ، عنه : "أحد الأئمة العباد ، الزهاد ، أحد العلماء والأولياء ، وكان حسن التلاوة ، كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلاً ، ثقة ، من أئمة الرواية" [5]. وعده ابن تيمية من أئمة السلف[6]،

---

(١)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٢)"الطبقات الكبرى" ، لابن سعد ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، ١٩٦٨م ، دار صادر ، بيروت ، ج٥ ، ص٥٠٠ .

(٣)"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" ، للذهبي ، ج٣ ، ص٣٢١ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص٨٥ .

(٤)"تذكرة الحفاظ" ، ج١ ، ص٢٤٦ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٨٥ .

(٥)"البداية والنهاية" ، لابن كثير ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ج١٠ ، ص١٩٨ .

(٦) ابن تيمية ، "الاستقامة" ، ج٢ ، ص٣٨ .



ومن أكابر المشايخ [1].

وقال عنه الإمام الذهبي :"هو الراحل من المفاوز ، والقفار ، إلى الحصون والحياض ، والناقل من المهالك والسباخ إلى الغصون والرياض ، ... ، كان من الخوف نحيفاً ، وللطواف أليفاً" [2].

لقد كان في "حلية الأولياء .." ، "مجاوراً للبيت الحرام ، مع الجهد الشديد ، والورع الدائم ، والخوف الوافر ، والبكاء الكثير ، والتخلي بالوحدة ، ورفض الناس ، وما عليه أسباب الدنيا ، إلى أن توفى" – رحمه الله – [3].

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٢ .

(٢)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٨٤ .

(٣)أبو نعيم ،"حلية الأولياء" ، ط مكتبة السعادة ، د/ت ، ج٨ ، ص٤٤٨ .



الفصل الأول: معالم شخصيته. -رحمه الله- .

ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: تميز الإمام في خشيته لله وإخلاصه له، وتدبره للقرآن واهتمامه بآخرته.

المبحث الثاني : أخلاقه التي تميز بها.

المبحث الأول: تميز الإمام في خشيته لله وإخلاصه له، وتدبره للقرآن واهتمامه بآخرته.

وقد احتوى على خسمة مطالب :-

١- قوة خشيته لربه، ومحاسبة نفسه .

٢- إخلاصه لله وحذره الدائم من الرياء ومظاهره .

٣- رضاه العجيب عن أقدار ربه ، وحبه له .

٤- تدبره للقرآن ، وانتفاعه وتأثره به .

٥- اهتمامه بأمر الآخرة ، وحساب الله له .

١- قوة خشيته لربه ، ومحاسبته نفسه .

لقد كان الإمام الفضيل مداوماً على ذكر ربه ، كثير المناجاة لله ، عرف ذلك عنه ، ورواه تلاميذه وأصحابه ومدونوا التاريخ ، خاصة تراجم الصوفية !. واعتبر ذكر الله دواء ، وذكر الناس داءً ، فقال: "إذا ذكرتم الخلْق في مجالسكم ، فاذكروا الله تعالى ، فإن ذكره دواء لداء ذكر الخلق"(١).

وقد اعتنى الفضيل برواية الأحاديث الصحيحة المتعلقة بالذكر ، وحب الله للذاكرين وذكره العظيم لهم ، وخطورة خلو المجالس من ذكره سبحانه ، والصلاة على رسوله ، والعمل الصالح النافع ، أياً كانت صورته. فمن تلك الأحاديث ما رواه عن أبى هريرة ، - رضي الله عنه - ، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيما يرويه عن ربه ،: يقول الله تعالى : "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم" (٢).

وحديث ، رواه عن أبى هريرة : "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم" (٣). وغير ذلك من أحاديث رواها الإمام عن فضيلة الذكر

---

(١) "تنبيه المغتربين" ، ص٦٦ .

(٢) متفق عليه؛ صحيح البخاري، كِتَاَبُ التَّوحِيد، بَابُ: قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨]، رقم: ٧٤٠٥، ج٩، ص١٢١، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية، بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ ، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاو والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم: ٢٦٧٥، ج٤، ص ٢٠٦١، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، د.ت.

(٣) سنن الترمذي ، باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون الله. تحقيق وتعليق أ. أحمد شاكر وآخرين. ط٢، الحلبي، مصر، ١٩٧٥، ج٥، ص٦٤١.



وأهميته.

– ويحكى سيدنا بشر شيئاً من همة الفضيل العالية في العبادة وخوف الله ، فيذكر أنه كان بمكة مع الفضيل ، فجلس معه إلى نصف الليل ، ثم قام يطوف ، فقال له بشر : "يا أبا على ، ألا تنام ؟". فرد عليه الفضيل :"ويحك ، وهل يسمع أحد بذكر النار ، تطيب نفسه أن ينام؟!" [١].

ومن مظاهر ذلك ما ذكره مهران بن عمرو الأسدي وغيره قال : سمعت الفضيل بن عياض ، عشية عرفة بالموقف ، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاءُ ، يقول : واسوأتاه ، وافضيحتاه ، وإن عفوت" !. وفي رواية "واسوأتاه – والله منك – ، وإن عفوت". ثلاث مرات.

لقد كان عظيم الرهبة من النار ، والقيامة والحساب ، وفي ذلك قال منصور بن عمار :"تكلمتُ يوماً في المسجد الحرام ، فذكرتُ شيئاً من صفة النار ، فرأيتُ الفضيل بن عياض صاح ، حتى غشى عليه ، فطرح نفسه!".

وقال :"لو خُيّرتُ بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ، ولا أرى يوم القيامة ، لاخترت أن أعيش كلباً وأموت كلباً ، ولا أرى يوم القيامة" [٢].

وورد عنه قوله في ذلك أيضاً :"لو خيرت بين أن أبعث فأدخل الجنة ، وبين أن لا أُبْعث ، لاخترت أن لا أُبعث" [٣].

---

(١) "تاريخ الإسلام ..." ، ج١٢ ، ص١٨٧ . و"تاريخ مدينة دمشق" ، ج٤٨ ، ص٣٩٦.

(٢) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٩ . و"روح البيان" ، ج٣ ، ص٥٠٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٤ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٣ .

(٣) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٤ .



لذا كان يداوم على قيام الليل ، فكان يُلقَى إليه حصير بالليل في مسجده ، فيصلى من أول الليل ساعة ، حتى تغلبه عيناه ، فيُلقِي نفسه على الحصير ، فينام قليلاً ، ثم يقوم.

فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقوم هكذا ، حتى يصبح ! (1) .

– وقد كان الفضيل يحاسب نفسه بشدة ، ويُعلم سائليه وجلساءه وجوب أخذ النفس بالحزم ومراجعة حالها ، وماذا سيصنع عند قبرها وحساب الله لها ، وفي ذلك ، سأله رجل مرة : "كيف أصبحت يا أبا علي ؟". فثقل عليه السؤال ، ورد عليه :"في عافية" .

ثم سأله : كيف حالك ؟. فرد الفضيل : عن أي حال تسأل ؟. عن حال الدنيا أو حال الآخرة ؟.

وأكمل :"إن كنت تسأل عن حال الدنيا ، فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب . وإن كنت تسأل عن حال الآخرة ، فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه وضعف عمله ، وفني عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ، ولم يخضع للموت ، ولم يتشمر للموت ، ولم يتزين للموت، وتزين للدنيا ؟".

ثم أخذ الفضيل يحاسب نفسه ، قائلاً :"واجتمعوا حولك ، يكتبون عنك ، بخٍ ، فقد تفرغت للحديث !" ، ثم قال : "ويحك ، أنت تحسن تحدّث؟. أو أنت أهل أن يُحمل عنك ؟. استحِ يا أحمق بين الحمقان !.

– لولا قلة حيائك ، وسفاهة وجهك ، ما جلستَ تحدّث ، وأنتَ أنتَ!. أما تعرف نفسك ؟. أما تذكر ما كنت ، وكيف كنت !، أما لو

---

(1) "صفة الصفوة" ، ج1 ، ص428 . و"حلية الأولياء" ، ج8 ، ص87 .



عرفوك ما جلسوا إليك ، ولا كتبوا عنك ، ولا سمعوا منك شيئاً أبداً ...." وأخذ يردد ذلك لنفسه [١] ، ثم قال مِخاطباً نفسه :"ويحك ، أما تذكر الموت؟!، أمَا للموت في قلبك موضع ؟. أما تدري متى تؤخذ فيرمى بك في الآخرة ، فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟ ، أما رأيت قبراً قط ؟. أما رأيت حين دفنوه ؟ ، أما رأيت كيف سلوه في حفرته ، وهالوا عليه التراب والحجارة؟ ".

ثم قال لنفسه :"ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كله ! [يعني نفسه] ، تَدري من تكلم بفمه كله ، عمر بن الخطاب ، كان يطعمهم الطيب ، ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ، ويلبس الخشن ، وكان يعطيهم حقوقهم ، ويزيدهم".

– وبين حسن عاقبة من يمقت نفسه ويحاسبها حتى تستقيم لأمر الله ، فذكر أن "من مقت نفسه في ذات الله ، أمَّنه الله من مقته". وحذر من الغفلة ، والاغترار بعفو الله وستره ، وإهمال العمل الصالح ، فقال : ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل ، مقتك عليه ، فأغلق دونك أبواب المغفرة، وأنت تضحك كيف ترى أن يكون حالك ؟" [٢].

– لقد كان صريحاً مع نفسه ، لدرجة تقرب من القسوة المطلوبة ، حين كان يمسك بلحيته بيده ويبكي يقول : "من أحب أن ينظر إلى مراء ، فلينظر إلىَّ ، كنتَ يا فضيل في شبابك فاسقاً ، ثم صرت في كهولتك مرائياً، والله للفسقُ أهون من الرياء" . وفي رواية :"كنت يا فضيل في

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص١٠٠ ، ١٠١ .



شيبوبتك فاسقاً عاصياً ، وصرت في كهوليتك مرائياً منافقاً ، والله للفاسق ، والعاصي ، أخف إثماً عند الله من المرائي والمنافق ، لأن العاصي ينتظر من الله المغفرة ، ولا كذلك المرائي والمنافق ، لأنه ذنب قلَّ أن يشعر به صاحبه ، حتى يتوب منه [(١)].

ومن هذا القبيل قوله : إذا كان الله يسأل الصادقين عن صدقهم ، مثل إسماعيل وعيسى – عليهما الصلاة والسلام – ، فكيف بالكاذبين أمثالنا؟" [(٢)].

ويذكر عنه مواقف وأحداث ، دالة على صدقه في محبة الله ، وإكرام الله له بإجابة دعائه ، وتفريج كربه .

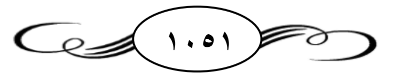
من ذلك لما أصابه عسر البول ، دعا قائلاً : بحبي إياك إلا ما فرجتَ عني . ففرَّج الله عنه ! [(٣)]. وفي رواية "بحبي إياك لما أطلقته ، فأطلقه !" .

---

(١) "تنبيه المغتربين" ، ص٢٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٤ .

(٣) "المنهج القويم في اقتضاء الصراط المستقيم" ، لشيخ الإسلام ، ابن تيمية ، تأليف محمد بن على بن أحمد ، بدر الدين البعلي ، تحقيق على بن محمد العمران ، ط١ ، دار عالم الفوائد للنشر ، مكة ، ١٤٢٢هـ ، ج١ ، ص١٩٢ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي، ج١٢ ، ص١٩١ .



٢- إخلاصه لله ، وحذره الدائم من الرياء ومظاهره .

بين الفضيل لكل مسلم ضرورة الإخلاص لله والمتابعة لهدى النبي - ﷺ - معاً ، لينال العبد قبول الله ورضوانه ، وذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك :٢) ، فقال عن أحسن العمل: "أخلصه وأصوبه" .

ثم فسر ، فقال :"إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً".

وقال : الخالص إذا كان لله - عز وجل - ، والصواب إذا كان على السنة" [١].

وكان حريصاً على تصفية عمله لله ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ، حذراً من الرياء والنفاق ومظاهرهما .

ومما يؤكد ذلك قوله : "اتق أن تكون مرائياً وأنت لا تشعر ، تصنعت وتهيأت حتى عرفك الناس ، فقالوا : هو رجل صالح ، فأكرموك ، وقضوْا لك الحوائج ، ووسعوا لك في المجالس ، وإنما عرفوك بالله ، ولولا ذلك لهنتَ عليهم ، كما هان عليهم الفاسق لم يكرموه ، ولم يقضوه ، ولم يوسعوا له المجلس .

خيبة لك ، ما أسوأ حالك ، إن كان هذا شأنك" !! [٢].

---

(١) تفسير ابن رجب ، "روائع التفسير" ، ج٢ ، ص٤٩ . و"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص٩٦ .

(٢) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٤ . و"صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٩ .



وخاطب نفسه وكل صالح بقوله : تزينتَ لهم بالصوم ، فلم ترهم يرفعون بك رأساً ، تزينت لهم بالقرآن ، فلم ترهم يرفعون بك رأساً !. تزينت لهم بشيء بعد شيء ، إنما هو لحب الدنيا" .

– وحَبَّب لرجل الإخلاص لله ، وإفراده بالقصد والعمل ، فبين له إن حقق الإخلاص لربه ، فإن الله سيعطيه ما يسأل ، فقال له : "لأعلمنَّك كلمةً هي خير من الدنيا وما فيها : والله لئن علم اللهُ منك إخراج الآدميين من قلبك ، حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره ، لم تسأله شيئاً إلا أعطاك" .

بل كان يبغض مجالسة من تقتصر مجالسته على إظهار محاسن كلامه ، فيقابله بمثل ما يصنع !، حدث هذا مع واحد ، لم يفتح له الفضيل الباب ، فسأله ابنه "على" عن سبب ذلك فقال الأب ، الفضيل : "ما يصنع بي ؟ يُظهر لي محاسن كلامه ، وأظهر له محاسن كلامي ، فلا يتزين لي، ولا أتزين له ، خير له" (١).

وشهد له كثيرون بصدقه وعدم رغبته دنياً ، أو سمعة بعمله وقوله ، فقال في ذلك ابن المبارك :"إن الفضيل بن عياض صدق الله ، فأجرى الحكمة على لسانه ، فالفضيل ممن نفعه علمه" (٢).

وقال عارفوه : "لقد كان الفضيل "صدوق اللسان" (٣).

ويوضح الفضيل بغضه وإباءه الرياء بعبادته ، وطلب الدنيا بشهرة

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٩ ، ٤٣٠ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٣ ، ٩٧، ٩٨ .

(٢) "سير أعلام النبلاء" ، للذهبي ، ج٨ ، ص٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٤٢٧ ، ٤٢٨ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٧ .



صلاحه ، فقال :"لَأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحب إليَّ من أن أطلبها بالعبادة" [١]. وفي رواية :"لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به أحسن من أن يطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة" [٢].

ووضح أن "ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيكَ منهما" [٣].

– وخاطب كل مسلم ، فقال له : إن قدرت أن لا تعرف فافعل ، وما عليك ألا تُعرف ، وما عليك ألا يثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس ، إذا كنت محموداً عند الله – عَزَّ وَجَلَّ – " [٤].

وقال آخر عنه :"ما رأيتُ رجلاً يريد الله بعلمه وعمله ، وأخذه وعطائه ، ومنعه وبذله ، وبغضه ، وحبه ، وخصاله كلها غيره" [٥].

لقد أبغض السمعة والشهرة ، وتمنى ألا يعرفه أحد ، فقال :"لوددت أنه طار في الناس أني قد مِتُّ ، حتى لا يُسمع لي ذكر !" [٦]. وفي

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٠. و"تاريخ مدينة دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٠٥ .
(٢) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٨ .
(٣) "روح البيان" ، إسماعيل حقي الأستانبولي الحنفي ، ط. دار الفكر ، بيروت ، د/ت ، ج١ ، ص٢٤٦ . و"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٦ . و"سير أعلام ..." ، ج٦ ، ص٣٠٤ .
(٤) "الزهد الكبير ..." ، للبيهقي ، ط١ ، دار الجنان ، بيروت ، تحقيق عامر أحمد حيدر ، رقم ١٤٨ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ .
(٥) "تهذيب الكمال" ، ج٢٣ ، ص٢٩٠ . و"سير أعلام .." ، ج٦ ، ص٣٠٣ ، ٣٠٤ . و"حلية الأولياء"، طبقات الأصفياء" ، لأبي نعيم ، ج٨ ، ص٨٩ .
(٦) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٥ ، ٩٦ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣٧ .



رواية:"حتى لا أُذكر" .

لذا ورد عنه قوله :"كان يقال لا يزال العبد بخير ، ما إذا قال ، قال لله ، وإذا عمل ، عمل لله" .

- وبين أن المسلم إن جنبه الله شروراً خمسة ، وقاه الله كل سوء في الدنيا والآخرة ، فقال : "من وقى خمساً ، فقد وقى شر الدنيا والآخرة : العجب والرياء ، والكبر والإزراء ، [انتقاص الناس واحتقارهم] والشهوة".

وأراد أن يعظ طلابه بخشية الرياء والسمعة ، لما وقفوا له على باب المسجد الحرام ، فلما رآهم قال لهم : وددتُ أني لم أركم ، ولم تروني ، أتروني سلمت منكم ، أن أكون ترساً لكم ، حيث رأيتكم وتراءيتم لي ؟. لَأن أحلف عشراً أني مراءٍ ، وأني مخادع ، أحبُّ من أن أحلف واحدة أنى لستُ كذلك"! [1].

وحذر من بكاء العين وقسوة القلب معها ، وبين أن "البكاء ليس بكاء العين ، إنما البكاء بكاء القلب ، فإن الرجل قد تبكي عيناه ، وقلبه قاس ، لأن بكاء المنافق يكون من رأسه ، لا من قلبه" [2].

---

(١) المرجع السابق ، ص٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) "تنبيه المغتربين" ، ص٦٧ .



٣- رضاه العجيب عن أقدار ربه ، وحبه له .

عُرف الفضيل برضاه عن أقدار ربه ، من فقر وضيق – أحياناً كثيرة – ، وأعباء لاقاها في حياته ، بل كان يعد ذلك دليل حب ربه له وولايته ! ، وفي ذلك قال في مناجاته :"أجعتَني وأجعتَ عيالي ، وتركتني في ظلم الليل بلا مصباح !. وإنما تفعل ذلك بأوليائك ، فبأي منزلة نلتُ هذا منك ؟" [١].

ورأينا ما هو أعجب وأدل على تمام رضاه وحبه لمولاه ، حين مات ابنه على ، فكان مبتسماً ، مستبشراً ، ولما سئل عن سبب ذلك أجاب :"إن الله أحب أمراً ، فأحببت ذلك الأمر" [٢].

لذا بين الإمام الفضيل لبشر الحافي أن "الرضا عن الله أكبر من الزهد في الدنيا" ، فلما سئل من سيدنا بشر كيف ذاك ؟. قال له : يكون العطاء والمنع في قلبك بمنزلة واحدة".

وجاء رجل يسأله : يا أبا على ، علِّمني الرضا !.

قال له : يا ابن أخي ، ارض عن الله ، فرضاك عن الله يهب لك الرضا ! [٣].

---

(١) "تاريخ مدينة دمشق" ، ج٤٨ ، ص٣٩٥ . و"إحياء علوم الدين" ، ج٣ ، ص٨٢،٨٣ .

(٢) "وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان" ، لابن خلكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨م ، ج٣ ، ص٢١٦ . و"حلية الأولياء، ج٨ ، ص١٠٠ .

(٣) "تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٠٠ .



لقد بين عظمة وسمو السعي إلى نيل مرضاة الله – تعالى – ، وأن هذا الهدف العظيم [رضا الله تعالى] ، يستحق كل جهد وتضحية ، وبذل ، وجهاد وغزو في سبيل الله ، وأن ما تبذله ملائكة الله سبحانه ، خاصة جبريل واسرافيل – من شدة اجتهاد وطاعة دائمة لله ، يعد قليلاً أمام رضا الله عنهم . فقال : "كنت – قبل النوم – أعجب ممن يعطي ، وأنا اليوم لا أعجب ، لأن الذي يَطلب ليس بصغير . وأنت لو بلغك أن رجلاً تصدق بألف درهم من ماله لتعجبت . أو يكون صاحب رباط لتعجبت ، وما تدري ما يَطلب لو كنت تعقل هذا ؟. ولكنك لا تعقله !" .

وأكمل قوله : "واللهِ لو أخبرت عن جبريل واسرافيل بشدة اجتهاده ما عجبتُ . وكان ذلك قليلاً عندما يطلبون . أتدري أي شيء يطلبون ؟. وأي شيء يريدون ؟. رضا ربهم – عز وجل – ".

ودعا إلى اليقين بالقدر ، وأن الأرزاق قدرها الله لخلقه ، وقسمها برحمة وحكمة وعدل ، ومن الأرزاق المقسمة المحبة من الحلق للعبد ، لذا ، على العبد سؤال الله كل ما يحتاج ، من أنواع الرزق المختلفة ، ولا يحسد ، أي أحد من خلق الله ، فالله هو المعطِي والمانع وحده . فقال ذلك :"إن الله – تعالى – يقسم المحبة ، كما يقسم الرزق ، وكل ذا من الله ، – تعالى –. وإياكم الحسد ، فإنه ليس له دواء" [1].

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٨ ، ٩٩ .



٤- تدبره للقرآن، وانتفاعه وتأثره به .

كان وثيق العلاقة بكتاب الله ، تالياً ، متدبراً ، معتبراً ، منفذاً .

وكانت تلاوته للقرآن ، متميزة ، حيث كانت "حزينة ، شهية ، بطيئة، مترسلة ، كأنه يخاطب إنساناً ، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها ، ويسأل ربه" (١).

وعرف عنه أصحابه حبه سماع القرآن من غيره وتأثره به ، وأن إسماعه القرآن من قارئ حسن الصوت سبب في لقاء الفضيل بهم .

فمن الوقائع في ذلك ، ما ذكره أحد أصحابه فقال : "كنا على باب الفضيل بن عياض ، فاستأذنا عليه ، فلم يؤذَن لنا !. فقيل لنا :"إنه لا يخرج إليكم ، أو سمع القرآن" !.

فكان معنا رجل مؤذن ، وكان صيّتاً ، فقلنا له : اقرأ :"ألهاكم التكاثر". ورفع بها صوته ، فأشرف الفضيل ، وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع ، ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه ، وأنشأ يقول :

بلغتُ الثمانين أو جُزتُها فماذا أؤمل أو أنتظرْ ؟ .

أنَّى لي ثمانون من مولدي وبعد الثمانين ما يُنتظرْ ؟ .

... ثم خنقته العَبرة " (٢).

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٨ . و"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٧ ، ٤٢٨ . و"حلية الأولياء" ، ص٨٧ .

(٢) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٩ .

وقد كان كثير البكاء أثناء تلاوة القرآن ، خشوعاً وحباً لربه وكلامه – تعالى – ، من ذلك ما ذكره إبراهيم بن الأشعث من كثرة رؤيته الفضيل تالياً للقرآن بالليل "يردد من أول الليلة إلى آخرها هذه الآية ونظائرها : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا .. الآية . ثم يقول : يا فضيل ، ليت شِعري ، من أي الفريقين أنت ؟!" (١).

وقال أحد عارفيه :"ما شبهت عيني الفضيل بن عياض ، – رحمه الله – ، إلا كأنهما ميزابان" !! (٢) ، من كثرة الدموع ، تخشعا لربه . وقال سهل بن راهوية لابن عيينة : ألا ترى إلى الفضيل ، لا تكاد تجف له دمعة" . فبين سفيان السبب فقال : "إذا قرح القلب ، نديت العينان" . يقصد سفيان أن قلب الفضيل ملئ بتعظيم ربه وخشيته ، ومهموم بحاله وعلاقته بمولاه(٣).

ومن تدبره للقرآن وتأثره به بكاؤه عندما قرأ آيات ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾. فسئل عن سبب بكائه ، فأخبر السائل بأن الله أنعم عليه وعلى كل إنسان بنعم كثيرة لا تحصى ، لكن ابن آدم لا يشكر ربه عليها ، ولا يستعملها في طاعاته !!.

وقال في ذلك :"هل بِتَّ ليلة شاكراً لله أن جعل لك عينين تبصر بهما ؟.

هل بتَّ ليلةً شاكراً لله أن جعل لك لساناً تنطق به ؟".

---

(١) تفسير الثعلبي ، ج٨ ، ص٣٦١ . والزمخشري ، "الكشاف" ، ج٤ ، ص٢٩٠ .

(٢) "تنبيه المغتربين" ، ص٢٩ .

(٣) "سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٩ ، ٤٤٠ .

وجعل الفضيل يعدد نعمه تعالى على عباده ، ووجوب شكرها ! [١].

وقال في ذلك – أيضاً – :"عليكم بالشكر ، فإنه قلَّ قوم كانت عليهم من الله نعمة فزالت عنهم ، ثم عادت إليهم" [٢].

ومما قاله في هذا الشأن :"بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أُنعم عليك ؟. ألم أعطك؟. ألم أسترك؟. ألم ، ألم ، ألم أُخملْ ذكرك" !. ثم قال :"إن استطعت أن لا تُعرف فافعل ، وما عليك ألا يثني عليك !؟. ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس ، محموداً عند الله !"[٣].

وكان إذا قرأ قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد : ٣١) ، يعتبر بها ويتأثر ويقول مناجياً ربه :"اللهم إنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، وأنت أرحم الراحمين" [٤].

وفي رواية : جعل يردد "ونبلو أخباركم" ، ثم قال : وتبلو أخبارنا ؟. إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا" . ويبكي ! [٥].

ولما جاءه البعض يسألونه أن يملي عليهم شيئاً من علمه لفت نظرهم إلى العناية بالقرآن ، تلاوة وتدبراً ، وفهماً ، وقال لهم :"ضيَّعتم كتاب

---

(١) "روائع التفسير" ، لابن رجب ، ج٢ ، ص٥٨٨ .
(٢) "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" ، لجلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، ط. دار الفكر ، بيروت ، د/ت ، ج١ ، ص٣٧٢ .
(٣) "تفسير ابن كثير" ، ج٦ ، ص٣٤٢ .
(٤) "تنبيه المغتربين" ، ص١٧ .
(٥) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١١١ .



الله ، وطلبتم كلام فضيل ، وابن عيينة ؟.

ولو تفرغتم لكتاب الله – تعالى – ، "لوجدتم فيه شفاء لما تريدون" .

فردوا عليه : "قد تعلمنا القرآن" . فقال لهم : "إن في تعلم القرآن شغلاً لأعماركم ، وأعمار أولادكم ، وأولاد أولادكم".

فسألوا : كيف ؟. فرد – معلِّما لهم – :"لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومحكمه ومتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وناسخه ومنسوخه ، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة" .

ثم قرأ قوله تعالى :"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم – بسم الله الرحمن الرحيم – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٥٧) (١) . وللإمام الفضيل موقف جليل ، ذكَّر فيه المشتغلين بعلم الحديث ، رواية بأهمية مراجعة القرآن دائماً وتدبره ، وتقديمه على العناية بالسنة ، فالقرآن أولاً ، مع سنة النبي – ﷺ – ، الموضحة الشارحة للقرآن ، فقد دخل عليه بعض العاملين برواية الحديث ، فقال الفضيل لهم : "هؤلاء المحدِّثون يعجبهم قرب الإسناد ، ألا أخبرك [لأحد الحاضرين] بإسناد لاشك فيه ، رسول الله ، عن جبريل ، عن الله : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ . فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس" . فتأثر الحاضرون ، حتى

(١) تفسير الثعلبي المسمى :"الكشف والبيان عن تفسير القرآن" ، تحقيق الإمام أبى محمد بن عاشور ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٢م ، ج١ ، ص٨٦ .



غشى على الفضيل ، وشيخ كان حاضراً ، من التأثر والتدبر وخشية الله [1].

وبين الفضيل عظمة حامل القرآن ، وضرورة حفظه مقام القرآن ، فقال :"حامل القرآن ، مقامه يجل عن أن يعصى ربه ، وكيف يصح له أن يعصى ربه ، وكل حرف من القرآن يناديه : بالله عليك ، لا تخالف ما أنت حامله منى !.

فلا ينبغي لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين ، ولا يسهو مع الساهين ، ولا يغفل مع الغافلين" [2].

وما أصرحه ، وأصدقه حين وضح خطورة إهمال العمل بالقرآن من حافظه ، وتاليه ، فقال :"ما ثَم مصيبة أعظم من مصيبتنا ! ، يتلو أحدنا القرآن ، ليلاً ونهاراً ، ولا يعمل به ، وكله رسائل من ربنا .

وقال : "إن حملة القرآن يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء، – عليهم الصلاة والسلام " [3].

ومن جميل تفسيره المبين حبه للعلم وطلبه والعمل به ، ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ، حيث قال : "والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به"[4].

ومن إبداعاته ما ذكره في تدبره لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا

(١) "سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٢) "تنبيه المغتربين" ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٨٢ .

(٤) تفسير الثعلبي ، ج٧ ، ص٢٩٠ .



غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ، فقال لما سئل : "لو قال الله تعالى لك : ما غرَّك بي؟. ، فماذا تقول له ؟". قال الفضيل : أقول : ستورك المرخاة" [١].

وكان إذا قرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الانفطار : ١٠-١٢)

يقول عنها :"ما أشدها من آية على الغافلين" [٢].

ومن صور تدبره وتأثره ، ما قاله في قوله تعالى عن المجرمين عند وضع الكتاب ورؤيتهم ما فيه وإشفاقهم ، وقولهم : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (الكهف : ٤٩).

قال الفضيل متأثراً باكياً : "يا ويلتاه ، ضجُّوا إلى الله – تعالى – من الصغائر قبل الكبائر" [٣].

---

(١) "تفسير القرآن" ، لمنصور بن محمد السمعاني ، تحقيق ياسر إبراهيم وغنيم عباس ، ط١ ، دار الوطن ، الرياض ، ١٩٩٧م ، ج٦ ، ص١٧٣ .

(٢) "الكشاف" ، للزمخشري ، ج٤ ، ص٧١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ، "الجامع لأحكام القرآن" ، تحقيق أحمد البردوني وغيره ، ط٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ج١٠ ، ص٤١٩ .



٥- اهتمامه بأمر الآخرة ، وحساب الله له

إن الإمام الفضيل كان عظيم الاعتناء بأمر الآخرة والموت ، وتبعاته ، ويراه شأناً خطيراً ، يطيش بالعقول ، وهذا حق وصدق ، ومما يبين ذلك حاله وأقواله ، ومن أقواله ما وعظ به أحد إخوانه ، فقال : "ويحك؟. أما تذكر الموت ؟. أمَا للموت موضع في قلبك ؟. أما تدري حتى تؤخذ فيرمى بك في الآخرة ، فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟!.

أمَا رأيتَ قبراً قط ؟! أمَا رأيت حين دفنوه ؟. أمَا رأيت كيف سلوه في حفرته ، وأهالوا عليه التراب والحجارة ؟" (١).

وبين حزنه على العالم إذا انشغل بالدنيا وغفل عن آخرته وعدم عفة بعض أهل الحديث والعلم عما في أيدي الناس ، فقال :"إني لأبكي على العالم ، إذا رأيت الدنيا تلعب به ، ولو كان لأهل القرآن والحديث صبر على الزهد في الدنيا ، ما تمندل بهم الناس .

واسوأتاه من أن يقال : فلان العالم أو العابد ، قد قدِم حاجاً على نفقة "فلان التاجر" !! (٢).

وعبر عن رغْبه الكبير وخشيته العظيمة من البعث والحساب بين يدي ربه ، تعظيماً لحقوق ربه ، وإجلالاً لقدرته وكبريائه ، ورؤية التقصير منه في جنب الله ، فقال في ذلك :"والله لأن أكون هذا التراب ، أو هذا الحائط ، أحب إليَّ من أن أكون في مسلخ أفضل أهل الأرض اليوم ، ولو أن أهل السماء وأهل الأرض طلبوا أن يكونوا تراباً فشفعوا ، كانوا قد أعُطوُا

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٥ ، ٨٦ .

(٢) "تنبيه المغتربين" ، ص١٦ .



عظيماً !.

ولو أن جميع أهل الأرض من جن وإنس ، والطير الذي في الهواء، والوحش الذي في البر ، والحيتان التي في البحر ، علموا الذي تصيرون إليه ، ثم حزنوا لك وبكوْا ، كنتَ موضع ذلك" .

وكان يناجي ربه في مرض موته ، فيقول :"ارحمني بحبي إياك ، فليس شيء أحب إليَّ منك" . ومما كان يردده – أيضاً – : "ارحمني ، فإنك بي عالم ، ولا تعذبني ، فإنك عليَّ قادر" (١).

وقد روى الفضيل بسنده عن النعمان بن بشير حديثاً عن الدعاء ، قال فيه الرسول – ﷺ – :"الدعاء هو العبادة" (٢).

ومن أدعيته المعبرة عن إجلاله للإسلام وسنة الرسول وهديه ، وأنهما هما كل الحياة الطيبة ، بعلمها والعمل بهما ، والحياة في ظلهما والموت عليهما ، قوله :"أسألك الحياة الطيبة : الإسلام والسنة". وفي رواية أنه نصح البعض فقال له : "اسلك الحياة الطيبة : الإسلام ، والسنة" (٣).

ومن دعائه المؤثر قوله :"اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلَّت ، وأنت أعظم منها وأجلّ ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله" (٤).

---

(١) "تنبيه المغتربين" ، ج٨ ، ص٨٥ ، ١٠٩ ، ١٩٩ .

(٢) سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: ٢٩٦٩، ج٥، ص٢١١، ط٢، الحلبي – مصر – ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٠ .

(٤) تفسير "الكشاف ..." ، للزمخشري ، ج٢ ، ص٣٧٢ .



وقد رآه إسحاق بن إبراهيم في عرفات ، واضعاً يده اليمنى على خده، وواضعُ رأسه ، يبكي بكاءً خفياً ، فلم يزل كذلك ، حتى أفاض الإمام من عرفات ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : "واسوأتاه – والله – منك ، وإن عفوت". ثلاث مرات !! [(١)].

ولما مات الفضيل قال ابن المبارك : "مات الفضيل ، ارتفع الحزن"، وكذا قال وكيع : "ذهب الحزن اليوم من الأرض" [(٢)].

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٢) "تاريخ الإسلام" ، ج١٢ ، ص١٨٦ .



– المبحث الثاني :

أخلاقه التي تميز بها :

ويحتوي على ثلاثة مطالب :

١– تواضع الإمام – رحمه الله – .

٢– زهده وهوان الدنيا في قلبه ،.

٣– اقتداؤه بالسابقين من صحابة وتابعين .

١- تواضع الإمام – رحمه الله – .

أخذ الفضيل بيد سفيان بن عيينة ، وأعطاه درساً في التواضع ، وانكسار النفس لله ، وعدم الاغترار بالعلم والشهرة ، ورؤية الذات وحظها .

فقال لسفيان : "إن كنت تظن أنه بقى على وجه الأرض شر مني ومنك ، فبئس ما تظن " (١). وقال :"من رأى لنفسه قيمة ، فليس له في التواضع نصيب" (٢).

ومثل صنيعه مع سفيان صنع مع الحسين بن زياد الذي حكى ذلك حيث قال الفضيل له : "عساك إن رأيت في ذلك المسجد ، يعنى المسجد الحرام – رجلاً شراً منك ، إن كنتَ ترى أن فيه شراً منك فقد ابتُليتَ بعظيم"(٣). وحذر من الاغترار بالطاعات ، وأمان أخذ الله عبده بذنبه ، وسخطه عليه ، بسبب فساد نية ، أو كبيرة أسخطته تعالى ، ولم يتب منها العبد . فقال : "ما يؤمَنك ؟. تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه ، فأغلق دونك أبواب المغفرة وأنت تضحك ؟. كيف ترى أن يكون حالُك ؟ (٤).

– وكان الفضيل يرى نفسه صغيراً ، خطاء ، يعاتب نفسه ، ويستصغرها أمام حق ربه وفضله عليه ، فكان يقول :" الناس مغفورون كلهم ، لولا مكاني فيهم" (٥).

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٩ . و"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١٠٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٤٣٠ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٤ .

(٤) "حلية الأولياء" ، ج٢ ، ص١٠٠ .

(٥) "التعرف لمذهب أهل التصوف" ، للكلاباذي ، ص٧٠ .



وما أشمل وأروع بيانه لأهم ما يشمله خلق التواضع ، حين سئل عنه فقال :"أن تخضع للحق ، وتنقاد له ، ولو سمعتَه من صبي قبلتَه منه ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلتَه منه" (١). وصدق حين بين أن "الله يحب العالم المتواضع ، ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله ، ورَّثه الحكمة" (٢). وفي رواية :"وأنس بربه" (٣).

٢– زهده وهوان الدنيا في قلبه.

– مما يدل على ذلك قوله :"لو أن الدنيا كلها بحذافيرها ، جعلت لي حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة ، لكنت أتقذرها" (٤). وفي رواية "كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه" (٥). وقال – أيضاً – :"لو أن الدنيا كانت بأسرها تحت يدي ما فرحت بها ، ولو أن أحداً أخذها كلها من يدي ما تبعته ، ولا حزنت عليها" (٦).

وقد كان يسأل الله الزهادة في الدنيا ، ويرى الزهد فيها باب صلاح القلوب والأعمال ، وسبيل النجاة ، وبما كان يدعو به في ذلك :"اللهم زهّدنا في الدنيا ، فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا ، وجميع طلباتنا ، ونجاح حاجاتنا"(٧).

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩١ .

(٢) "تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج٤٨ ، ص٤١٠ .

(٤) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٨ . و"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٥) الغزالي ، "إحياء علوم الدين" ، ج٤ ، ص٢٢٥ . و"الرسالة القشيرية" ، ص١٠ . و"البداية والنهاية" ، ج١٠ ، ص٢٢٦ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٦) "تنبيه المغتربين ..." ، ص٢٤٢ .

(٧) "حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١٠٩ .



ومن العجيب قوله : "أصلح ما أكون أفقر ما أكون" [(١)].

وصدق حين ذكر أن "زهادة العبد في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة".

ونصح أحدهم مرة فقال :"ليست الدار دار إقامة ، وإنما أُهبط آدم إليها عقوبة !. ألا ترى كيف يزويها عنه ، ويمررها عليه بالجوع مرة ، وبالعري مرة ، وبالحاجة مرة ؟. كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ، تسقيه مرةً حضيضاً ، ومرة صبراً ، وإنما تريد بذلك ما هو خير له" [(٢)].

وحذر من الانشغال بالدنيا عن الآخرة ، والفرح بالأشياء المادية ، أكثر من الفرح بأعمال الآخرة ، والحزن لنقصان شيء من الدنيا ، في حين لا نحزن إن نقص ديننا وعملنا الصالح !.

وقال في ذلك :"أمران ، لو لم نُعذَّبْ إلا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله : أحدنا يزاد الشيء من الدنيا ، فيفرح بها فرحاً ، ما علم الله أنه فرح بشيء زاده قط في دينه . وينقص الشيء من الدنيا فيحزن عليه حزناً ، ما علم الله أنه حزن على شيء قط ، نقصه في دينه" [(٣)]. وصدق حين قال:"ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة ، ثم لا ترى لها عاشقاً" [(٤)]. وصدق حين ذكر أن القلوب لن تذوق حلاوة الإيمان إلا بزهدها في الدنيا ، فقال : "حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان ، حتى تزهدوا في

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٨ .و"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٨٩ ، ٩٠ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٨٧ .

(٣)"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ج٨ ، ص١١٢ .



الدنيا"[1].

وما أجمل تصويره للدنيا وفنائها القريب ، ونجاح المؤمن فيها إن صبر ، ليظفر بنعيم طويل ، وبؤس عاقبة من تعجل الشهوات الآثمة في الدنيا ، وعذاب أليم ينتظره في الآخرة ، فقال :"صبر قليل ، ونعيم طويل ، وعجلة قليلة وندامة طويلة ، رحم الله رجلاً أخمل ذكره ، وبكى على خطيئته، قبل أن يرتهن بعمله" [2].

وكي يظهر الإمام حقارة الدنيا ، ونفاسة الآخرة ، وحمق الراغب في الدنيا ، مثَّل الدنيا بالخزف ، والآخرة ، بالذهب الخالص ، فقال : "لو كانت الدنيا من ذهب يفني ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان ينبغي لنا أن نحتار خزفاً يبقى على ذهب يفني ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفني على ذهب يبقى؟"[3].

٣- اقتداؤه بالسابقين من الصحابة والتابعين .

- كثيراً ما كان يحيا في ظلال وأنوار السابقين الكبار، يقتدي بهم، ويذكر بدورهم العظيم في مسيرة الدعوة والإصلاح.

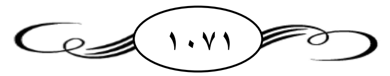
ومما قال في ذلك :"أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرك ، قال : ليس لكِ (يخاطب نفسُه) هذا ، قومي ، خذي حظكِ من الآخرة" [4]. وذكر من سمات السابقين

(١) "فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب" ، ج١ ، ص٤٥ .

(٢) "حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١١٢ .

(٣) "إحياء علوم الدين ..." ، ج٣ ، ص٢٠٧ .

(٤)"صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٩ .



الصالحين أنهم يأنفون من مجالسة الغافلين عن الله ، خاصة الأغنياء منهم، فقال :"لقد أدركنا الناس ، وهم ينفرون من مجالسة الأغنياء ، ومن مجالسة كل غافل عن الله – تعالى – " (١).

وبين أن من عظُم شأنُه في الأمة ، وأدرك حب الله والتأثير في الناس ، إنما وصل لذلك بأعمال عظيمة ، من حسن عبادة ، وسخاء نفس وسلامة صدر ، ونصح واهتمام بالأمة ، فقال :"لم يدرك عندنا من أدرك ، بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور، والنصح للأمة" (٢).

وقد كان الفضيل يكثر تذكير الناس بفضائل الصحابة ، وعظيم عبادتهم لربهم وتبتلهم له ، – سبحانه – ، ومما قال في ذلك :"كان الصحابة – رضي الله عنهم – يصبحون شعُثاً غبُراً ، قد باتوا سُجَّداً وقياماً ، يراوحون بين أقدامهم وجباهم .

وكانوا إذا ذُكر الله – عز وجل – يميدون ، كما تميد الشجرة في يوم الريح ، وتهمل أعينهم حتى تبتل ثيابهم ، وتصير دموعهم كآثار ماء الوضوء .

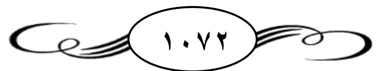
فإذا كان وقت السحر ، يدهنون وجوههم ، ويكتحلون ، كأنهم كانوا نائمين غافلين (٣). ووضح أن "من أخلاق الأنبياء والأصفياء الأخيار ،

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص٢٤٧ .

(٢)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٣ .

(٣)"تنبيه المغتربين" ، ص٢٢٥ ، ٢٢٦ .



الطاهرة قلوبهم ، خلائق ثلاثة : الحلم والأناة ، وحظ من قيام الليل" (١).

ومما قاله عن تجار صالحين في بيعهم وشرائهم ، رآهم ، يدعو للاقتداء بهم ، وذكر آخرين معاصرين له ، حذر من معاصيهم :"لقد أدركنا الناس وهم يبيعون في السوق ، وعلى أحدهم الزحام من الناس ، فإذا سمع الآذان للصلاة ، نهض مسرعاً ، وترك البيع ، وأما أهل زماننا فإن نفق السوق (أي راجت تجارته) ، أخروا الصلاة ، وإن كسد ندموا – (على ذهاب الربح والمال)" (٢). أي همهم المال والربح ، لا الآخرة ووجه الله .

وحكي الفضيل عن سفيان الثوري موقفاً عظيماً ، يدل على قوة خشية وتعظيم الثوري لربه – تعالى – ، قال : حج سفيان الثوري ، – رحمه الله – ، ماشياً من البصرة ، فقيل له : "أمالك ظهر تركبه ؟". قال : "أما يرضى العبد الآبق ، أن يأتي إلى مصالحة سيده إلا راكباً !!. والله إني لفي غاية الخجل من مجيئي إلى تلك الأرض". (يقصد مكة المكرمة) (٣).

وقد كان الفضيل محباً للإمام أبى حنيفة ، وقد تلقى الفقه والعلم منه ، يثني عليه ، ويعرّف الناس فضله وإمامته ، وجميل أخلاقه ، وسمو فقهه للدين ، ومما قاله :"كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً ، معروفاً بالفقه ، مشهوراً بالورع ، واسع المال ، معروفاً بالإفضال على كل من يطيف به . صبوراً على تعليم العلم بالليل والنهار .

وتابع : "كان (أبو حنيفة) حسن الليل ، كثير الصمت ، قليل

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٥ .

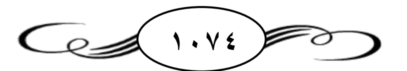
(٢)"تنبيه المغتربين" ، ص١٩٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢٣٨ .



الكلام ، حتى ترد مسألة في حلال أو حرام ، فكان يحسن أن يدل على الحق ، هارباً من مال السلطان ، يروي أنه ضُرب غير مرة على أن يلي القضاء ، فلم يفعل" [١]. وفي رواية : "كان أبو حنيفة معروفاً بكثرة الإفضال، وقلة الكلام ، وإكرام العلم وأهله" [٢].

(١)أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي ،"موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" ، ط١ ، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ج٢ ، ص٣٢٧ .
(٢)"أخبار أبى حنيفة" ، ص٥٠ .



خلاصة الفصل الأول، والمستفاد منه تربوياً

اتضح من هذا الفصل خصال تمثلت في شخصية الإمام الفضيل، يحتاجها كل مربي ومصلح لكي ينجح في مسعاه، كما نجح الإمام.

ومن أهم ما تميز به الإمام الفضيل في شخصيته **ما يلي: –**

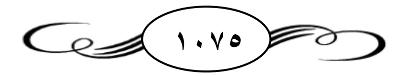
أ. قوة عبادته لله، وكثرة ذكره له، وشدة خوفه من حساب ربه له في الآخرة، لدرجة مدهشة، ووردت عنه عبارات في هذا الأمر، لم أقرأها لغيره.

وكذلك الأمر في حسابه لنفسه، ومعاتبتها، – رحمه الله –.

ب. أما عن سعيه لتحقيق الإخلاص لربه في معاملته، وعبادته، فقد اعتنى بذلك بقوة، ودعا له طلابه، ومستمعيه، وهرب من كل مظهر للرياء، أو السمعة، أو الشهرة، أو مغنم دنيوي!.

ج.وبشأن قضية الإيمان بقدر الله، ورضاه به، وحبه لما أنزل ربه به من أقدار، فقد قدم مثالًا عظيمًا في هذا الأمر، وهذا دال على قوة وصدق إيمانه، ووعيه العالي برحمة الله وعدله، وجميل صنعه به، فهو أرحم الراحمين!.

د. وما أوثق علاقة الإمام الفضيل بكتاب الله، تلاوة وتدبرًا، واعتبارًا، وتنفيذاً، وقيامًا لليل به، وتذكيرًا بحكمه وأحكامه، وتربية للمجتمع بأنواره. وقد ظهر هذا في الكتابة عن الإمام في البحث.



هـ. وبرز في سيرته –رحمه لله– شدة اهتمامه بأمر الآخرة ومواقفها العظيمة، خاصة أول منزل من منازلها، وهو القبر وسؤاله، وكثر تحذير الإمام من غفلة العالم –خاصة– عن آخرته، فهذه الغفلة تضيع فاعلها وتهلكه، وتضله في حياته.

و. ومن الأخلاق الجليلة التي اشتهرت عنه، وبها أثر في كل من لقيه، تواضعه، لربه، وانكساره له، وعدم اغتراره بعلمه وشهرته، وعدم رؤيته نفسه!.

وله في ذلك أقوال، ومواقف رائدة، وكذا في أمر زهده في الدنيا وزخارفها، وهوانها في قلبه، فقد كان مثالاً قوياً في هذا الشأن، وهو من أسباب قوته وصلابته في دينه، وجهره بالحق.

- وكان كثير التذكر والاعتبار والتأدب، والذكر للسابقين القدوات الكبار، من الصحابة والتابعين، يحكى أحوالهم، في عبادتهم الخاضعة لله، وإصلاحهم لواقعهم، وأدائهم حق دينهم.

الفصل الثاني :

دوره التربوي والمجتمعي :

ويحتوي على عدة مباحث :

١- التربية العملية لطلابه وسامعيه .

٢- تنبيهه إلى أهمية العلم وآدابه والعمل به .

٣- نصحه لإخوانه العلماء .

٤- ضرورة التفكر ومراجعة النفس والحال .

٥- تقدير الصحبة ، ورعاية حقوق الأخوة .

٦- تقديمه تجاربه للمجتمع ، تعليماً وإرشاداً .

٧- إدراكه أهمية الحاكم الصالح ، ونصحه له.

١- التربية العملية لطلابه وسامعيه .

لقد عاش الفضيل دينه سلوكاً وأفعالاً ، وحياة رآها الناس ، فربى الناس بحاله ، قبل كلامه . وهذا أعظم المناهج تأثيراً : القدوة والحال قبل ومع البيان واللسان !.

ومن دلائل ذلك ما قاله أحد العلماء الذين عاشوا معه ورأوه ، إبراهيم بن الأشعث الذي قال : "كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة ، لا يزال يعظ ، ويذكّر ويبكي ، كأنه مُودعُ أصحابه ، ذاهب إلى الآخرة ، حتى يبلغ المقابر ، فيجلس ، فكأنه بين الموتى !، يجلس بين الحزن والبكاء حتى يقوم ، وكأنه يرجع من الآخرة ، يخبر عنها " (١).

وما أبلغ كلام ابن المبارك في هذه المسألة حين قال : إذا نظرت إلى الفضيل جدَّد لي الحزن ، ومقتُّ نفسي" . ثم بكى !" (٢).

وكان الفضيل يرى أن على العبد تغليب جانب الخوف والخشية من ربه على جانب الرجاء ، ما دام العبد صحيحاً ، معافى ، لم يأته مرض موته أو قارب على الوفاة ، وإلا غلَّب جانب الرجاء في رحمة ربه ! (٣).

وقال في ذلك :"الخوف أفضل من الرجاء ، ما كان العبد صحيحاً ، فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل من الخوف" (٤).

---

(١)"تهذيب الكمال" ، للمزي ، ج٢٣ ، ص٨٩ ، ٩٠ . بتصرف يسير ، و"تاريخ الإسلام، ج١٢ ، ص١٨٧ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٤ .

(٢)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٨ . و"تاريخ الإسلام ..." ، ج١٢ ، ص١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ، ج٦ ، ص٣٠٧ .

(٤)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ ، ٩٩ . و"التذكرة الحمدونية" ، ج٣ ، ص١٣٦ .



وكان يركز عملياً على ربط المدعوين بربهم ، وتحبيبهم في مولاهم، ويشوقهم لعبادته والقرب منه خاصة في الثلث الأخير من الليل ، رأينا ذلك مع الحسين بن زياد ، الذي ذكر أن شيخه الفضيل أخذ بيده ، فقال له : يا حسين ، ينزل الله – تعالى – كل ليلة إلى سماء الدنيا ، فيقول الرب : من ادعى محبتي ، إذا جنه الليل نام عني ؟. أليس كل حبيب يحب خلوةً بحبيبه ؟. ها أنذا مطلع على أحبابي ، إذا جنَّهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم ، فخاطبوني على المشاهدة ، وكلموني على حضوري ، غداً أقر أعين أحبائي في جناتي" .

وللإمام كلام فيه مناجاة عظيمة رقيقة لله – تعالى – ، وتعريف للمدعوين بكرم ربهم وإحسانه الدائم إليهم ، وستره ، وحلمه عليهم وحبه – تعالي – للتائبين ، جاء فيها :"ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، إلا نادي الجليل – جل جلاله – .

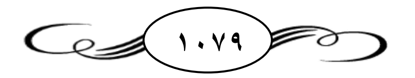
"مَن أعظم مني جوداً ، والخلائق لي عاصون ؟. وأنا لهم مراقب !.

أكلؤهم في مضاجعهم ، كأنهم لم يعصوني ! ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا !.

– مَن بيني وبينهم ؟! .

– أجود بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء ؛ من ذا الذي دعاني فلم أسمع إليه ؟. أوْ من ذا الذي سألني فلم أعطه ؟. أو من ذا الذي أناخ ببابي ونحيته ؟.

أنا الفضل ، ومنى الفضل ، أنا الجود ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم !.



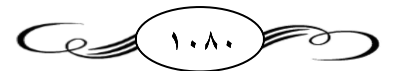
ومن كرمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطى التائب ، كأنه لم يعصني . فأين عني تهرب الخلائق ؟ (١).

وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟". وفي رواية أخرى : "ومن مثلي يجود على العاصين ، لكي يتوبوا ، فأغفر لهم ، فيا بؤس القانطين من رحمتي ، ويا شقوة من عصاني وتعدى حدودي ، أين التائبون من أمة محمد . وذلك في كل ليلة " (٢).

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٩٢ ، ٩٣ .



٢- تنبيهه إلى أهمية العلم ، وآدابه والعمل به .

إن الفضيل – رحمه الله – كان يدرك أهمية العلم ، والمعرفة المكسبة للإنسان الرشد في عقله وسلوكه والموصلة له للإيمان بالله وحبه ، وصدق حين ذكر أن "أجل ما رُزق الإنسان معرفة تدله على ربه ، وعقل يدله على رشده" (١). ووضح ثمرة العلم بالله في البعد عن الضلال ، فقال:"من عرف الله حق المعرفة ، فهو بعيد عن الضلالة ، ومن عرف الإخلاص ، فهو بعيد عن الرياء" (٢).

وبين أثر العلم بالله في نيل خشيته وتفاوتها بتفاوته ، فقال : "أعلم الناس بالله ، أخوفهم منه" (٣). "ورهبة العبد من الله – عز وجل – على قدر علمه بالله" (٤).

– لذا اهتم الإمام بطلب العلم ، بعد توبته لربه ، فقصد مدينة العلم الكبرى في العراق ، الكوفة . فتلقى العلوم المختلفة على يد كبار فقهائها وعلمائها ومربيها ، فأخذ الفقه عن أبي حنيفة ، والقراءات عن سليمان بن مهران ، والحديث عن وهيب بن الورد ، وكذا الزهد ، وتلقى على غير هؤلاء العلماء ، وظل يطلب العلم والعمل حتى وفاته – رحمه الله – .

وخاطب الفضيل الطلاب وكل مستمعيه بوجوب طلب العلم

---

(١)"النكت والعيون" ، تفسير الإمام أبو الحسن على بن محمد الماوردي" ، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم ، ط١ ، د/ت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٣ ، ص٢٠١ .

(٢)"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٢٩ .

(٣)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١١١ .

(٤)المرجع السابق ، ص٨٩ .

والاستمرار فيه مع العمل به ، وشكر الله – تعالى – ، كلما ازداد علماً . فقال في ذلك :"على الناس أن يتعلموا ، فإذا علموا فعليهم بالعمل" (١).

وقال : "من زاد علمه ، فليزدد شكره" (٢).

وعندما طلب طالب من الفضيل أن يحدثه بأحاديث وقال للإمام:"لو حدثني بأحاديث فوائد ، ليست عندي ، كان أحب إليَّ من أن تهب لي عددها دنانير !!" .

نبهه الإمام الفضيل إلى ضرورة العناية بالعمل مع العلم ، فقال له: "إنك مفتون ، أَما واللهِ لو عملتَ بما سمعت ، لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع !" .

ثم أسمعه الفضيل كلمة لسليمان بن مهران تبين وجوب انتفاع الإنسان بعلمه أولاً ، واستقامته به هو أولاً ، ثم يأتي بعد ذلك ومعه نفع الناس وهدايتهم ! فقال له :"سمعت سليمان بن مهران يقول : إذا كان بين يديك طعام تأكله ، فتأخذ اللقمة فترمي بها خلف ظهرك ، كلما أخذت لقمة رميت بها خلف ظهرك ، متى تشبع ؟" !! (٣).

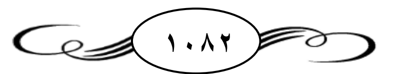
– واستنكر الفضيل طمع العالم فيما في أيدي الناس ، واشتهار ذلك عنه بين الناس ، فإن ذلك مضيّع لهيبة وبركة وأثر العلم ، ومشوه للعلماء ، ويبغضهم في قلوب الناس ، فقال :"ما أقبح قلة ورع العالم ، وما أقبح قول

---

(١)"تاريخ دمشق" ، ابن عساكر ، ج٤٨ ، ص٤٢٨ .

(٢)المرجع السابق ، ص٤٤٦ .

(٣)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٧ ، ٤٢٨ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٧ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٩١ .



الناس: إن العالم الفلاني قدم حاجاً بمال الأمير الفلاني ، أو بمال المرأة الفلانية" (١).

وصدق حين حذر من جعل العالم المال والدنيا هدفه ، ونسيانه ربه والآخرة ، فقال :"العلم دواء الدين ، والمال داء الدين ، فإذا جر العالِم الداء إلى نفسه كيف يُصلح غيره ؟" (٢).

وبين مفتاح الشر وسببه الأول والأخطر ، وكذا مفتاح الخير ، فقال:"جعل الله الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد" (٣).

– وما أحكمه حين وضع قانوناً يقيس به العالم نفسه ، هل هو من العلماء بالله ، العارفين به ، أم لا ، فقال : أعلمُ الناس بالله أخوفهم منه" (٤). وقال: رهبة العبد من الله ، على قدر علمه بالله (٥).

– وما أجمل تصويره للعلماء المصلحين ، وأثرهم الجميل في الحياة، فشبههم بالربيع ، يطببون المريض ويسعدون الناس ، ويحبونهم ، ويقدرهم المجتمع ، فقال :"كان العلماء ربيع الناس ، إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً ، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً ، وقد

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص٩٧ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٩١ .

(٤)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٧ .

(٥)المرجع السابق ، ج٨ ، ص٢٢٦ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ .



صاروا اليوم فتنة للناس" [1].

وما أشد ألم الحقيقة التي ذكرها ، ويصدقها الواقع وهي هلاك الأمة بسبب علمائها السوء ، فقال : لن تهلك أمة إلا من جهة علمائها السوء ، جلسوا على طريق الرحمن ، فقطعوا الطريق على عباد الله ، بأعمالهم الخبيثة" [2].

وبين أن خشية الله هي ثمرة العلم الصحيح ، وكفى بها دلالة على علم صاحبها ، فقال : كفى بخشية الله علماً ، والاغترار به جهلاً" [3].

– ووضح أهمية العمل بالعلم ، ومشقة تكاليف هذا العمل ، فإن ازدياد الإنسان بالعلم يحمله تكاليف جديدة ، لذا لا يفرح العالم بزيادة علمه إلا مع استعداد لمزيد من العمل بالتكاليف الجديدة ، ليفوز بالفرح الكبير يوم القيامة ، فقال الإمام في ذلك : "لو أن حامل العلم عمل به لتجرع مرارته ، ولم يفرح به ، لأنه كله تكاليف ، وكلما ازداد علماً ، ازداد تكاليف.

فلا ينبغي للعالم أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط ، ورضا الله عنه ! [4] .

ووضح أن حساب الله للعلماء سيكون عسيراً ، لخطورة علمهم الذي حملوه وتبليغه وتطبيقه ، وقال : "يغفر للجاهل سبعون ذنباً ، ما لم يغفر

---

(١)"العقد الفريد" ، ج٢ ، ص٨٦ .

(٢)"تنبيه المغتربين" ، ص٩٥ .

(٣)"الزهد الكبير" ، للبيهقي ، خبر رقم ٥٤٨ .

(٤)"تنبيه المغتربين" ، ص١٨ .



للعالم ذنبُ واحد" [1].

وبين ثمار العمل ، في توفيق الله للعبد ، وإكسابه علماً من لدنه سبحانه ، فقال :"من عمل بما علم ، استغنى عما لا يعلم ، ومن عمل بما علم ، وفقه الله لما لا يعلم".

– وصدق حين بين أن الخوف من الله أمان وحماية للمؤمن ، وخوف غيره دون الله ، ضياع وأضرار ومصائب !. فقال : "من خاف الله لم يضره أحد ، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد" [2]. وصدق حين وضح أن المؤمن يهابه الناس على قدر هيبته ، فقال : "إنما يهابك الخلق ، على قدر هيبتك لله" [3].

وعدد صوراً من رياء العلماء ، يجب الحذر منها ، فقال :–

١– "إذا رأيتم العالم أو العابد ، ينشرح لذكره بالصلاح عند الأمراء ، وأبناء الدنيا ، فاعلموا أنه مراء" .

٢– وقال :"من علامة المرائين بعلمهم أن يكون علمهم كالجبال ، وعملهم كالذر" [4] . يقصد قلة عملهم الصالح ، وإهمالهم ازدياد صلاحهم ، مع حرصهم على الزيادة من العلم ! .

لذا طالب بصحة النية في العلم تعلماً وتعليماً ، مع طلبه للعمل به لله ، وعدم جعله شبكة لصيد الدنيا ، فقال :"لو صحت النية في العلم ، لم

---

(١)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٠ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٤ ، ٤٣٥ .
(٢)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٢٦ .
(٣)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١١٠ .
(٤)"تنبيه الغافلين" ، ص١٨ .



يكن علم أفضل منه ، ولكنهم تعلموه لغير العمل به ، وجعلوه شبكة لصيد الدنيا" [١].

٣- انتقد الفضيل سكوت العلماء عن إنكار المنكر ، وعدم إعلان رفضهم ظلم الظالمين ، فقال لبعض العلماء :"كنتم معشر العلماء سرج البلاد ، يُستضاء بكم ، فصرتم ظُلمة !. وكنتم نجوماً يُهتدَي بكم ، فصرتم حيرة !. ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظلمة ، ثم يسند ظهره ، يقول : حدثنا فلان عن فلان !!" [٢]. وفي رواية أن سفيان الثوري سأله عظة فقال له : وبماذا أعظكم معاشر العلماء ، كنتم سرجاً يستضاء بكم في البلاد ، .....، يأتي أحدكم إلى أبواب هؤلاء الولاة ، فيجلس فيه ، ثم يقول حدثنا فلان عن فلان ، عن رسول الله – ﷺ – بكذا ، والله ما هكذا يطلب العلم ؟". فبكى سفيان ، حتى خنقته العبرة ، وخرج [٣].

ورأى أن من علامة الزهاد [من العلماء خاصة] :"أن يفرحوا إذا وصفوا بالجهل عند الأمراء ومن داناهم" [٤].

وقد حزن أشد الحزن عندما أبصر بعض العلماء متزاحمين على أبواب هارون الرشيد ، فخاطبهم – ناصحاً ومذكراً – :"ما لكم وللملوك ؟. ما

---

(١) المرجع السابق ، ص١٧ .

(٢)"صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٠ .

(٣)"تنبيه المغتربين" ، ص١٧ ، ١٨ .

(٤)"الطبقات الكبرى" ، للشعراني ، ج١ ، ص٥٩ .



أعظم مِنَّتَهم عليكم !!.

قد تركوا لكم طريق الآخرة ، فاركبوا طريق الآخرة .

ولكن لا ترضوْن ؛ تبيعونهم الدنيا ، ثم تزاحمونهم عليها ، ما ينبغي لعالم أن يرضى هذا لنفسه !" [١]. وصدق :"لو كان مع علمائنا صبرُ ، ما غدوْا لأبواب هؤلاء" . يعني الملوك[٢].

– وطالب العلماء بالحفاظ على كرامة العلم وإعزازه ، وصيانته من عبث المفسدين ، وتحريفهم ، فقال في ذلك :"لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم، وشحوا على دينهم ، وأعزُّوا العلم وصانوه ، وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعتْ لهم رقاب الجبابرة ، وانقاد لهم الناس ، وكانوا لهم تبعاً ، وعزَّ الإسلامُ وأهله ، ولكنهم أذلوا أنفسهم ، ولم يسألوا عما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنْياهم ، فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ، ليصيبوا بذلك مما في أيدي الناس ، فذلوا وهانوا على الناس" [٣]. وفي رواية :"فهانوا وذلوا ، ووجدوا لغامز فيهم مغمزاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، أعظِم بهم مصيبة" [٤].

وفي رواية أنه قال :"لو أن أهل العلم زهدوا في الدنيا ، لخضعت لهم رقاب الجبابرة" [٥].ومن رصده للواقع تبين له أن :"العلماء كثير ، والحكماء قليل . وإنما يراد من العلم الحكمة ، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي

---

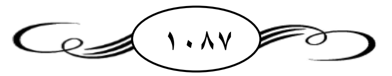
(١)"حلية الأولياء" ، لأبي نعيم ، ج٨ ، ص١٠٢ . و"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٤٧، ٤٤٨ .

(٢)المرجع السابق ، ص٩٢ .

(٣)"روح البيان" ، ج٢ ، ص١٤٢ .

(٤)"التذكرة الحمدونية" ، ج٢ ، ص٩٦ .

(٥)"الطبقات الكبرى" ، للشعراني ، ج١ ، ص٥٩ .



خيراً كثيراً" (١).

وعندما رأى قوماً من أصحاب الحديث يمرحون ويضحكون بصورة لا تليق ، ذكَّرهم بخطورة مقامهم ، واقتداء الناس بهم ، وضرورة رعاية ذلك في حياتهم فلا يرى الناس منهم إلا الجميل الحسن ، فقال لهم : مهلاً ، يا ورثة الأنبياء ، مهلا ، (ثلاثا) . إنكم أئمة يقتدي بهم" (٢).

– وكان يرى وجوب تجنب دخول العلماء على السلطان ، إلا لمن كان في مثل شخصية الخليفة عمر بن الخطاب الذي لم يكن يخشى إلا الله، وقادر على إنكار المنكر عند السلطان ، ونهيه عن الجور والظلم . وفي ذلك : "لا يصلح أن يدخل على الأمراء ، ويخالطهم إلا مثل أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، – رضي الله عنه – ، وأما أمثالنا ' فلا يصلح له الدخول عليهم ، لعجزه عن مواجهتهم بالنصح والإنكار عليهم ، فيما يراه منهم من الظلم والجوْر ، ونحوه ، كفرش الحرير والستاير ، وغير ذلك" (٣). ومما قاله في ذلك :"لأن يدنو رجل من جيفة منتنة ، خير له من أن يدنو من هؤلاء !. (يعني السلاطين الظلمة) ، رجل لا يخالط السلطان ، ولا يزيد على المكتوبة ، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ، ويصوم النهار ويحج ويعتمر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويخالطهم" (٤).

وكان يتعجب من ذهاب وتهافت العلماء على أبواب السلاطين ،

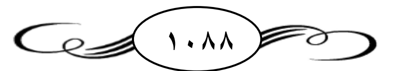
---

(١)تفسير ابن رجب ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٤٢٨ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٢.

(٢)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٥ .

(٣)"تنبيه المغتربين" ، ص٢١ .

(٤)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٨ .



ويقول : والله لو استأذن عليَّ هارون الرشيد ، ما أذنتُ له !، إلا أنْ أُغلَب على ذلك ، فكيف بمن يذهب هو إليه من هؤلاء الفقراء ؟". وقال في ذلك:"كنا نتعلم اجتناب أبواب السلطان ، كما نتعلم السورة أو الآية من القرآن" .

لذا ذكر – والواقع يثبت صدقه – أنه "كم من عالم يدخل على السلطان ، ومعه دينه ، فيخرج ، وليس معه من دينه شيء ، والعياذ بالله – تعالى –" [(١)].

وكان الفضيل – رحمه الله – مدركاً أحوال العلماء ، ومدى صدقهم وكونهم قدوة صالحة ، لذا بين أن العلماء نوعان :"إنما هما عالمان : عالِم دنيا ، وعالِم آخرة .

فعالِم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة علمه مستور . [يقصد عدم ريائه بعلمه ، وطلبه به الدنيا] .

فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالِم الدنيا ، لا يصدكم بسكره . [أي بالدنيا ، ألهته وضيعته] .

ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ ﴾ [(٢)] (التوبة : ٣٤) .

– وذكر خصالاً مهمة لحامل راية الإسلام والدعوة ، عليه أن يتحلى بها ، من عفة وجدية وانتباه دائم لرسالته ، واستغنائه عن الخلق ، خاصة الحكام ومن دونهم ، فقال : "حامل القرآن حامل راية الإسلام ، لا

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص١٩٤ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٢ .



ينبغي له أن يلغو مع من يلغو ، ولا أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو .

– وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى الخلْق حاجة ، لا إلى الخلفاء فمن دونهم . وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه" (١). وخاطب كل داعية ، بتجنب سخط الله وعذابه إن لم يخلص لله في علمه ، فقال : "ويل لك ، إن لم يعف عنك ، إذا كنت تزعم أنك تعرفه ، وأنت تعمل لغيره" (٢).

– وطالب كل مسلم بالانشغال بنفسه وإصلاحها ، أما الانشغال بالغير ونسيان النفس ، فهو الهلاك وإضلال الله للعبد ، فقال في ذلك :"يكون شغلك في نفسك ، ولا يكون شغلك في غيرك ، فمن كان شغله في غيره فقد مُكر به" (٣).

– وحذر من التكلم فيما لا يعني العبد في أمر دينه ودنياه ، حتى لا يعاقَب بالانشغال عما يعنيه ويهمه . وقال في ذلك :"تكلمتَ فيما لا يعنيك ، فشغلك عما يعنيك ، ولو شغلك ما يعنيك تركت ما لا يعنيك" (٤).

وكم حذر الأمة من تعظيم الدنيا ، وإيثارها على الآخرة والدين ، والتفريط في الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وفي ذلك قال : "ذُكر لنا عن رسول الله – ﷺ – : "إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حُرمتْ بركة

---

(١)المرجع السابق ، ص٩٢ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣٥ .
(٢)"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٠٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٢ .
(٣)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٢ ، ١٠٣ .
(٤)"حلية الأولياء" ، ص١١٠ .



الوحي " [١].

وما أعظم فهمه حين ذكر أن الإنهمال في المعاصي ، وإغراق النفس والمجتمع في الآثام والقبائح ، يعد قتلاً للنفس والمجتمع ، ذكر ذلك الفضيل عند نظره في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾. فقال : "لا تقتلوها بارتكاب المعاصي" [٢].

وفي رواية أنه قال :"لا تغفلوا عن أنفسكم ، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها" [٣].

وحذر من انتشار الغيبة والإساءة بين القراء ، والمنتمين للعلم ، وسعى بعضهم لتنقيص الآخرين ، حسداً لهم ، ومنعاً لارتقائهم عليهم ، واشتهارهم بالخير عنهم ، وقال في ذلك :"فاكهة القراء في هذا الزمان ، الغيبة ، وتنقيص بعضهم بعضاً ، خوفاً أن يعلو شأن أقرانهم ، ويشتهروا بالعلم والزهد ، والورع دونهم .

وبعضهم يجعل الغيبة كالأدم في الطعام ، وهو أخفهم إثماً ! [٤].

---

(١)انظر تفسير الزمخشري ، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" ، للزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو ، ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ج٢ ، ص١٥٨ .ورواه ابن أبى الدنيا ، في كتاب "الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر". معضلاً ، من حديث الفضيل . وذكره السيوطي في الجامع الصغير ، رقم ٧٥٥ .

(٢)"زاد المسير في علم التفسير" ، لجمال الدين أبو الفرج ، عبد الرحمن بن علي الجوزي ، تحقيق / عبد الرزاق المهدي ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢٢هـ، ج١ ، ص٣٩٦ .

(٣)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١١١ .

(٤)"تنبيه المغتربين" ، ص١٣٠ .



[أي قليل الاغتياب].

ووضح أن الغيبة تحرق حسنات المغتاب ، وهذا غاية الحمق ، فقال :"مثال من يغتاب الناس ، مثال من ينصب منجنيقاً لحسناته ، ويصير يرميها شرقاً وغرباً في كل جهة" (١).

- وحذر الإمام الفضيل العلماء من حب الرئاسة ، والسعي إليها ، حباً في الدنيا ، وتحقيقاً لشهواتها الآثمة ، والطغيان بها على الناس ، فقال:"ما أحب أحد الرئاسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ، ليتميز هو بالكمال ، ويكره أن يذكر الناس أحداً عنده بخير" .

وختم تخديره بالنتيجة المتوقعة لمن يسعى للرياسة ، يريد منها بغياً وعلواً وفساداً ، فقال :"ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه" (٢).

وذكر أن الله يمنُّ على عبده بنعمة عظيمة ، قد لا ينتبه إليها الكثير ، وهي إخمال ذكره ، وانجاؤه من فتن ومخاطر الشهرة والسمعة ، فقال :"بلغني أن الله يقول في بعض ما يمنُّ به على عبده ، "ألم أنعم عليك؟. ألم أسترك ؟. ألم أخمل ذكرك ؟" (٣).

وحذر من تضييع الفرائض ، والانشغال بالنوافل عنها ، فقال : لن يتقرب العباد إلى الله بشيء أفضل من الفرائض ، الفرائض رءوس الأموال ، والنوافل الأرباح" (٤).

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص١٣١ .

(٢)المرجع السابق ، ص٤٦ .

(٣)"إحياء علوم الدين" ، ج٣ ، ص٢٧٧ .

(٤)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٠ .



- وقد بين الإمام أهمية وضرورة مجاهدة المسلم لنفسه وهواه ، حتى ينجو ، وينال مرتبة المجاهدين ، وفي ذلك قال في تفسير قوله – تعالى –: ﴿ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

"إن حق الجهاد هو مجاهدة النفس والهوى" [١].

وذكر الفضيل قول بعضهم عن الآية السابقة :"أفضل الجهاد مجاهدة النفس ، أن تجاهد نفسك ، من الحرام عما نهى الله – عَزَّ وَجَلَّ – ، وعن هواك" [٢].

ومن صور الجهاد الواجبة التي نبه إليها في مسيرة حياة المسلم قوله : أفضل الجهاد المواظبة على الصلوات ، وأكبر الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة" .

ومن الجوارح التي ينبغي مجاهدتها ، واستقامتها ، وإلا أضاعت صاحبها ، جارحة اللسان ! .

لذا قال في ذلك :"لا حج ولا جهاد ، ولا رباط أشد من حبس اللسان"! [٣].

- وكان يربي طلابه ومستمعيه على وجوب مصارحة النفس بحقائق الأمور ، وعدم مخادعة النفس ، لذا قال لأحدهم : "تريد الجنة ؟!. مع النبيين والصديقين ؟. وتريد أن تقف الموقف مع نوح وإبراهيم ، ومحمد ،

---

(١)"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" ، للألوسي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج١٧ ، ص٢٠٩ .

(٢)"تاريخ مدينة دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٢٩ .

(٣)المرجع السابق ، ج٤٨ ، ص٤٢٩ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١١٠ .



– عليهم الصلاة والسلام – ؟. بأي عمل ، وأي شهوة تركتَها لله – عز وجل – ؟. وأي قريب باعدتَه في الله ، وأي بعيد قربتَه في الله ؟" . وفي رواية :"هاه ، تريد أن تسكن الفردوس ، وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟. بأي عمل علمتَه ؟. بأي شهوة تركتها ؟. بأي غيظ كتمتَه ؟. بأي رحم قاطعة وصلتَها ؟. ، بأي قريب باعدتَه في الله ؟ ، بأي بعيد قربْتَه في الله ؟" .

وحذَّر من حيل الشيطان ، المفسدة لإخلاص العبد لربه ، فيضيع عمله الصالح ، وهو لا يشعر !!. فقال :"لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه ، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله ، لعله يكون كثير الطواف ، فيقول : ما كان أحلى الطواف الليلة !. أو يكون صائماً ، فيقول: ما أثقل السحور ! ، أو ما أشد العطش !" [1].

وتابع الفضيل نصيحته وبيانه :"إن استطعت أن لا تكون محدّثاً ولا متكلماً ولا قارئاً ، فافعل .[يقصد تجنب الرياء عن طريق تعليم الناس والتصدر] ، إن كنت بليغاً ، قالوا : ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوتَه ، فيعجبك ذلك فتنتفخ !.

وإن لم تكن بليغاً ولا حسن الصوت ، قالوا : ليس يحسن يحدّث ، وليس صوتُه بحسن ، أحزنك وشق عليك ، فتكون مرائياً !.

وإذا جلستَ فتكلمتَ ، ولم تبال من ذمك ومن مدحك ، فتكلمْ [2].

وخاطب الفضيل أحد طلابه وجلسائه ، موضحاً له سبلاً للرياء

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩١ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩١ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٤ .



وإرادة الدنيا وشهواتها ، تنسيه سلامة النية وصحتها ، ليحذرها ، فقال :"لو قيل لك : يا مرائي ، لغضبت وشق عليك ، وتشكو !. قال لي يا مرائي ، وعسى ما قال لك حقاً . من حبك للدنيا تزينت للدنيا ، وتصنعت للدنيا". ثم قال :"اتق الله ، لا تكن مرائياً ، وأنت لا تشعر !. تصنعت وتهيأت حتى عرفك الناس ، فقالوا : هو رجل صالح ، فأكرموك ، وقضوْا لك الحوائج ! .

ووسَّعوا لك في المجلس وعظموك . خيبة لك !، ما أسوأ حالك ، إن كان هذا شأنك !. وإنما عرفوك بالله ، لولا ذلك لهنت عليهم ، كما هان عليهم الفاسق ، لم يكرموه ، ولم يقضوه ، ولم يوسعوا له المجلس !" (١). وفي "سير أعلام النبلاء" قال الفضيل :"تزينت للدنيا وتصنعت ، وقصرت ثيابك ، وحسنت سمتك ، وكففت أذاك حتى يقال : أبو فلان عابد ، ما أحسن سمته !. فيكرمونك وينظرونك . ويقصدونك ، ويهدون إليك ، مثل الدرهم الستوق ، لا يعرفه كل أحد ، فإذا قشر قشر عن نحاس" !! (٢).

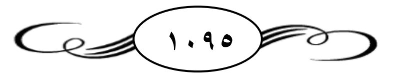
– وفي عبارات صريحة يخاطب المرائي :"تزينت لهم بالصوف [لباس الزهاد] ، ولم ترهم يرفعون لك رأساً ، تزينت لهم بالقرآن ، فلم ترهم يرفعون لك رأساً !. تزينت لهم بشيء بعد شيء ، كل ذلك إنما هو لحب الدنيا". وفي رواية "تزينت لهم بالصوم .." بدلاً من الصوف (٣). وكان يحذر من الرياء ، وصوره ، قديمها وحديثها ، فقال : "أدركنا الناس ، وهم يراءون

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٣ ، ١١١ . و"تاريخ الإسلام ..." ، ج١٢ ، ص١٨٨ .

(٢)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٣)المرجع السابق ، ص٩٨ . و"صفة الصفوة" ، ج٢ ، ص١٦٠ .



بما يعملون ، فصاروا الآن يراءون بما لا يعملون" !! (1).

وما أحكمه حين بين أن هلاك الخلق ، بسبب حبهم الدنيا وطول أملهم ونسيان الآخرة . فقال :"إنما أُتي الناس من خصلتين : حب الدنيا ، وطول الأمل" .

وذكر أن سوء عمل الإنسان في دنياه سببه طول أمله ، والتعلق بالدنيا المنسية للقاء الله ، فقال :"ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل" (2).

وخاطب الإمام العلماء ، مطالباً لهم ، بتوقير العلم وصيانته والعمل به والانتفاع به قبل غيرهم ، والاعتبار والاقتداء بمن سبقهم من العلماء الذين زهدوا في الدنيا ، فأقبلت عليهم ، وفروا منها ، في حين أن كثيراً منهم – في زمن الفضيل – يجري وراء الدنيا ، وهي تدبر عنهم !.

وفي هذه المعاني قال :"إن مَن كان قبلكم ، كانت الدنيا مقبلة عليهم ، وهم يفرون منها ، ولهم من القَدم ما لهم ، (أي لهم من جلائل الأعمال الكثير) ، وهي اليوم عنكم مدبرة ، وأنتم تسعون خلفها ، ولكم من الأحداث ما لكم" !. أي من المساوئ مالكم .

وتابع :"وأي حسرة على امرئ ، أكبر من أن يؤتيه الله – عز وجل – علماً ، فلم يعمل به ، فسمعه منه غيره ، فعمل به ، فيرى منفعته يوم القيامة لغيره" (3).

وذكر أنه بلغه "أن العلماء فيما مضى ، كانوا إذا تعلموا عملوا ،

(1)"تنبيه المغتربين ..." ، ص١٧ .

(2)"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص٩٨ . و"صفة الصفوة" ، ج٢ ، ص١٦٠ .

(3)المرجع السابق ، "حلية الأولياء ..." ، ص١٠٩ .



وإذا عملوا شغلوا ، وإذا شغلوا فُقدوا ، وإذا فُقدوا طُلبوا ، وإذا طلبوا هربوا" (١).

وقد نصح الفضيل بالحرص على تحصيل كل ما يفيد من علم وهدى عند حضور المجالس في أي مكان ، فقال :"كن شاهداً كغائب ، ولا تكن غائباً كشاهد" .

يقصد : إذا كنت في جماعة الناس ، فأخْفِ شخصك ، وأحضِر قلبك وسمعك ، وعِ ما تسمع ، فهذا شاهد كغائب .

ولا تكن غائباً كشاهد ، كأنه يقول : تحضر المجالس ببدنك وسمعك، وقلبك لاهٍ ساهٍ ! (٢).

ودعا إلى التزام المسلم بحسن الخلق في التعامل مع الناس ، والتمسك بالصدق وأكل الحلال فإن ذلك يزيّنه ويجمّله ، فقال في ذلك :"لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال" .

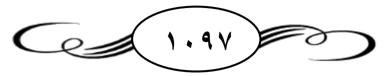
وللإمام الفضيل موقف مع طالب أراد قراءة الحديث الشريف عليه!. فعلَّمه ضرورة العناية بالخلق الفاضل مع طلبه العلم ، يقول الطالب أبو روح، حاتم بن يوسف" :"أتيتُ باب الفضيل بن عياض ، فسلمتُ عليه ، فقلت : يا أبا عليّ ، معي خمسة أحاديث ، "إن رأيت أن تأذن لي فأقرأ" . فقال لي : "اقرأ" . فقرأت ، فإذا هي ستة [أحاديث] ، فقال لي : "قم يا بُنيّ، تعلّم الصدق ، ثم اكتب الحديث" (٣). إنه يحضه على دقة الحديث وأمانته ، مع طلبه العلم .

---

(١)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٨٨ .

(٣)"الدر المنثور ..." ، ج٤ ، ص٣٢٠ .



– وكان دأبه النصح والتذكير ، لذا قال أحد عارفيه يثني عليه بأنه ما رأى أحداً أنصح للمسلمين منه ! [١].

ودعا طلابه إلى وجوب الصدق في معاملة الله ، لنيل محبته سبحانه وزرع محبته في قلوب الخلق لهم ، ورفعة الله لهم ، فقال :"عاملوا الله – عز وجل – بالصدق في السر ، فإن الرفيع من رفعه الله ، وإذا أحب الله عبداً أسكن محبته في قلوب العباد" [٢].

وقال عن ضرورة الالتزام في الصيام بالمنافسة في الخيرات ، واغتنام أوقاته في كل خير وجد ، :"لقد أدركنا الناس ، وهم ينزهون صومهم عن الضحك فيه ، ويقولون : إنه شهر المنافسة في الخيرات ، لا شهر الضحك واللعب والغفلة" [٣].

– وقدم نصيحة شاملة كافية في إصلاح الإنسان ، وذلك حين سأله رجل : يا أبا على ، ما الخلاص مما نحن فيه" ؟. فقال له الفضيل : "أخبرني ، من أطاع الله هل تضره معصية أحد ؟. قال الرجل : لا . قال الفضيل له : فمن يعصي الله ، هل تنفعه طاعة أحد ؟!. قال : لا . قال الفضيل : "هو الخلاص ، إن أردت الخلاص" [٤]. أي لاصلاح للإنسان إلا بطاعته لربه ، وانتباهه لحاله ، ولزومه الاستقامة ، وإن عصى من عصى، وانحرف من انحرف !.

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٣)"تنبيه المغتربين" ، ص١٨٥ .

(٤)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٦ .



– وما أحكم إجاباته ، – الدالة على توفيق كبير من الله له ، وعمق علمه وتجاربه ، ودقة فهمه الكبير – ، على أسئلة وجهت له . قيل له : ما الزهد ؟. قال : "القنوع" . قيل : ما الورع ؟. قال : "اجتناب المحارم" . قيل له : ما العبادة ؟. قال : "أداء الفرائض ؟". قيل : ما التواضع ؟ . قال : "أن تخضع للحق" . وقال : "أشد الورع : في اللسان [1].

٣- نصحه لإخوانه العلماء .

كان للفضيل مجالس تذاكر وتناصح مع إخوانه العلماء ، فيها مصارحة ومحاسبة ، من ذلك مجلسه مع سفيان الثوري ، حين تذاكرا فبكيا، فقال سفيان : "إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة".

فقال الفضيل : "نرجو ، لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤمة أليس نظرت إلى أحسن ما عندك فتزينتَ لي به ، وتزينتُ لك به ، فعبدتني وعبدتك ؟!" .

فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال للفضيل :"أحييتني ، أحياك الله" [2].

وفي رواية أن الفضيل رد على قول سفيان :" أرجو أن يكون هذا المجمع علينا رحمة وبركة" بقوله : "لكني يا أبا عبد الله ، أخاف أن يكون أضر علينا من غيره ، ألست تخلَّصت إلى أحسن حديثك ، وتخلصتُ أنا

(١) "سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣٤ ، بتصرف يسير. و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٢ .

(٢) "حلية الأولياء ..."، ج٨، ص١١٣ . و"سير أعلام ، ج٨، ص٤٣٩، ٤٤٠ .



إلى أحسن حديثي ، فتزينتُ لك ، وتزينتَ لي" [١] .

وقد رؤى سفيان بن عيينة يقبل يد الفضيل بن عياض مرتين ! وقال ابن المبارك مادحاً الفضيل :"إن الفضيل صدق الله ، فأجرى الحكمة على لسانه ، وهو ممن نفعه الله بعلمه" [٢] .

وعندما قيل : إن الفضيل لم يكن كالحفاظ الكبار في الحديث ، مثل مالك وشعبة وابن المبارك ونظرائهم ، رد الإمام الذهبي على ذلك بأن الفضيل كان ثبتاً قيماً فيما نقل ، وعلق بقوله : "وهل يراد من العلم إلا ما انتهى إليه الفضيل ؟" [٣]. نعم صدق الذهبي !.

ومن أمثلة نصحه لإخوانه ما حدث مع عيسى بن يونس ، العالم ، المحدث ، لما قدم إلى مكة ، فأحاط به الناس في درسه بالمسجد الحرام ، وازدحموا عليه ، فمرَّ به الفضيل ، فدنا منه ، وقال له : "يا أخي ، انظر إلى قلبك ، فلعله تغير من كثرة الازدحام عليك". فنظر عيسي إلى نفسه ساعة ، ثم قام فورا ، وترك المجلس ! [٤].

وقد نبه إلى العناية بملاحظة خواطر ومشاعر الرياء ، التي تريد دخول القلب النقي ، لطردها وتنقيته منها ، وقال في ذلك : "ومن لم يكن

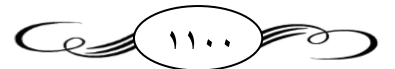
---

(١)"تاريخ الإسلام" ، ج١٢ ، ص١٨٨ .

(٢) "تاريخ الإسلام ..." ، للذهبي ، ج ١٢، ص١٨٦. و"سير أعلام النبلاء"، ج٨ ، ص٤٢٥ .

(٣)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٤)"تنبيه المغتربين" ، ص٩٣ .



في أعماله أكيس من ساحر ، وقع في الرياء" [١].

ووضح أهمية البكاء والدمع ، خشية الله ، وشوقاً إليه وندماً على الغفلات والخطيئات .

فقال في ذلك : "بكاء النهار يمحو ذنوب العلانية ، وبكاء الليل يمحو ذنوب السر" [٢].

وما أشمل موعظته ، التي تكفي الإنسان لو أراد النجاة ، حين قال لمن طلب منه وصية : "احفظ لسانك ، وأَقبِلْ على شأنك ، واعرف زمانك ، وأَخْفِ مكانك" [٣].

وفي رواية : يا عبد الله ، أَخْفِ مكانك ، واحفظ لسانك ، واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات كما أمرك" .

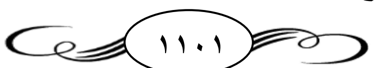
ومرة قال وصية لآخر :" أَخْفِ مكانك ، لا تعرف ، فتكرم بعملك !.

واخزِن لسانك إلا من خير ، وتعاهد قلبك أن يقسو!. وهل تدري ما قساوة من أذنب؟" [٤] .

وحقا ما قاله ، في بيان حال الدنيا والآخرة ، وسبيل النجاة ، : "صبر قليل ، ونعيم طويل ، وعجلة قليلة وندامة طويلة ، رحم الله عبداً ، أخمل ذكره ، وبكى على خطيئته ، قبل أن يرتهن بعمله" [٥].

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص١٢ ، ١٣ .
(٢)"روائع التفسير ..." ، لابن رجب الحنبلي ، ج١ ، ص٦٥٩ .
(٣)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص٩٤ ، ٩٧ .
(٥)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١١٢ .



وقال ، محذرا من الشقاء في الدنيا والآخرة :"خمس من علامات الشقاء : قسوة القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل" (١).

وبين للرجل الذي سأله : يا أبا علي ، متى يبلغ الرجل غايته من حب الله – تعالى – ، فقال : "إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء ، فقد بلغْتَ الغاية من حبه" (٢).

وكان حريصا على تعليم طلابه وأصحابه مكارم الأخلاق ، مع العلم الذي يملأهم به ، وكان يصحح أخطاءهم بحب ورحمة ، من ذلك ما ذكره تلميذه فيض بن إسحاق الذي كان عند الفضيل ، فجاء رجل ، فسأل الفضيل حاجة ، وألح في السؤال ، فقال له فيض : لا تؤذ الشيخ !. فزجره الفضيل وصاح به وقال له : "يا فيض ، أمَا علمت أن حوائج الناس إليكم نعمة الله عليكم ، فاحذروا أن تملوا النعم ، فتتحول نِقماً ، ألاَ تحمد ربك أن جعلك موضعاً تُسأَل ، ولم يجعلك تّسأَل !" (٣).

ودعا إلى مجالسة المساكين وجبر خواطرهم ، تواضعاً وإخباتاً لربه سبحانه ، وسعياً القضاء حاجاتهم ، وفي ذلك قال : "من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين" (٤).

واعتبر كمال المروءة عند المسلم ، تتم بستة أمور ، فقال : "كامل

---

(١)"الرسالة القشيرية" ، ص١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص١١٣ .

(٣)"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤٣١ .

(٤)"روائع التفسير" ، لابن رجب ، ج٢ ، ص١٩٣ .



المروءة : من بَرَّ والديه ، وأصلح حاله ، وأنفق من ماله ، وحسَّن خلقه ، وأكرم إخوانه ، ولزم بيته" [١].

وحذر من افتقاد العابد حسن الخلق ، لأنه – عندئذ – يشوه صورة الدعوة والدعاة ، ويغلق قلوب الناس نحو الدعوة ، ويبغضوه ودعوته ، وفي ذلك : "لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلُق ؛ إن الفاسق إذا حسن خلقه خفَّ على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه ثقل عليهم ومقتوه" [٢].

وصدق حين قال : "من ساء خلقه شان دينه ، وحسبه ومروءته" [٣].

ووضح أهمية اكتساب الأدب ، وأسبابه ، وذكر أن "رأس الأدب معرفة الرجل قدره" [٤].

وبين أهمية المعاملة مع الله بالصدق والإخلاص لله سبحانه ليرزق هذا الصادق الحكمة والسداد ، وفي ذلك قال : "من عامل الله – عز وجل – بالصدق ، أورثه الله – عز وجل – الحكمة" [٥].

وفي أمر التوكل بين أهميته في كمال الإيمان بالله ومعرفته ، واللجوء إليه في كل شأن ، وذكر تقصيره في هذا الجانب ، تعليماً للتواضع، ومحاسبة النفس والصدق مع وحاجته لمزيد من الاجتهاد في تحقيق مقامات

---

(١)"الزهد الكبير" ، للبيهقي ، رقن الأثر ١٥.

(٢)"التذكرة الحمدونية" ، ج٢ ، ص٢٢٧ . و"سراج الملوك" ، ص٢٥٣ .

(٣)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص١١٣ .

(٤)"العقد الفريد ..." ، ج٢ ، ص٢٤٤ .

(٥)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٨ .



الإيمان وشعبه كاملة ، قال : "إني لأستحي من الله أن أقول : توكلت على الله ، ولو توكلت على الله حق التوكل ما خفت ولا رجوت غيره". وفي رواية: "يا رب إني لأستحي أن أقول توكلت عليك ، لو توكلت عليك لما خفت ولا رجوت غيرك" (١).

وبشأن استخاره المؤمن ربه في أموره كلها ، طالب بذلك ، لكن مع الامتناع عن تحديد شيء معين ، والحذر من رفض أي قدر يأتي على غير رغبة العبد ، فقد يختار العبد ويطلب ما يكون فيه هلاكه .

فالمطلوب دراسة الأمر ، وتقليب النظر فيه ، واختيار الأصلح من الأمور ، والاستخارة الشرعية كما بينت السنة المطهرة ، والرضا باختيار الله للعبد بعد ذلك ، والتفكر في جوانب الخير فيه ، ومعرفتها وتنميتها . فقال الإمام في ذلك : "استخيروا الله ، ولا تتخيروا عليه ، فربما اختار العبد أمراً فيه هلاكه" (٢). وقال – أيضا – : " المتوكل الواثق بالله ، لا يتهم ربه ، ولا يخاف خذلانه ، ولا يشكوه" .

٤ – ضرورة التفكر ومراجعة النفس والحال .

نبه الإمام الفضيل إلى أهمية التفكر والتأمل في مراجعة الإنسان نفسه وإصلاحها وتدارك حاله ، وفي ذلك روى كلمة عن الإمام الحسن البصري ، جاء فيها :"الفكرة مرآة ، تريك حسناتك وسيئاتك" (٣).

---

(١)"العقد الفريد ..." ، ج٣ ، ص١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٧١ .

(٣)"تفسير ابن كثير" ، تحقيق سامي سلامة ، ط١ ، دار طيبة للنشر ، السعودية ، ١٩٩٩م ، ج٢ ، ص١٨٤ . وأحمد بن عثمان المزيد ، "تعظيم الله جل جلاله ، تأملات وقصائد" ، ط١ ، مدار الوطن للنشر ، الرياض ، ٢٠١١م ، ص٥٥ . و"حلية الأولياء.." ، ج٨ ، ص١٩ .



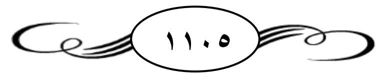
وروى عن أحد العلماء قوله :"الفكرة مخ العمل" [(١)].

لذا كان الفضيل يحب الخلوة في بيته ، وفي غيره ، – أحياناً – ، ويجد فيها راحة ولذة . فللخلوة – عندما تكون في وقتها المناسب ، وبقدرها الملائم – ، تأثيرها الكبير في صفاء الفكر والنفس ، وإتقان المراجعة ، للأحداث والمواقف ، وتصحيح المسيرة ، والانقطاع عن الشواغل ، والتزود من زاد التفكر والتأمل ، الضروري للنجاح في الحياة . وقد كان الصحابة – ومن بعدهم من تبعهم إلى الآن – يصنعون ذلك ، في غير أوقات الجهاد والعمل والخلطة الواجبة بالناس ، كانوا في خلوات ، يملأونها بقراءة قرآن ، وذكر ، وعبادة ، ومدارسة لسنة ، ومراجعة علم ... إلخ .

وفي ذلك جاء قوله :"ما أجد لذة ولا راحة ، ولا قرة عين إلا حين أخلو في بيتي ، بربي" [(٢)]. وقال – أيضاً – عن العزلة والوحدة :"إنها تورث الانتباه من رقدة الغفلة ، وتورث كثرة مراقبة الله – تعالى – بالغيب ، وما أحد عبد ربه إلا أحب ألا يشعر به أحد" . وينصح كل مسلم بتطبيق ذلك ، فيقول :"فإن استطعت أن تمشي للناس ، ولا يمشوا إليك ، وتسألهم ولا يسألونك ، فافعل !" .

ويتكلم عن حاله ، وحبه ألا يشغله شيء عن ربه ، عند رغبته في خلوة أو وحدة فيقول :"والله إني لألقى الرجل فلا يسلم عليَّ ، فأرى الفضل له ، وكذلك إذا مرضت ولم يعدني" [(٣)]. وقد تعجب من غفلة الكثير عن حاله السيء مع الله ، وتقصيره المستمر ، رغم تقدم عمره ، فقال : "كيف

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١٠٩ .
(٢)"تاريخ مدينة دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤١١ .
(٣)"تنبيه المغترين ..." ، ص١٥٦ .



ترى حال من كثرت ذُنوبه ، وضعف علمه ، وفني عمره ، ولم يتزود لمعاده ؟" [١].

٥- تقدير الصحبة ورعاية حقوق الأخوة .

دعا الفضيل إلى حسن اختيار الصاحب والجليس ، ومخالطة أصحاب الخلق الحسن ، فقال : "إذا خالطت الناس ، فخالط حسن الخلُق ، فإنه لا يدعو إلا إلى خير وصاحبه منه في راحة ، ولا تخالط سيءِ الخلُق ، فإنه لا يدعو إلا إلى شر ، وصاحبه منه في عناء !" [٢].

وما أجمل بيانه حقوق الرفقة والصداقة ، من خلال لفظتي الصديق والرفيق ، فقد قال :"إنما سُمي الصديق ، لتصدقه ، وإنما سُمي الرفيق لترفقه، ليس في السفر وحده ، بل في السفر والحضر" .

فطلب منه السامعون تفسير ما ذكره ، فبين بقوله :"أما الصديق ، فإذا رأيتَ منه أمراً تكرهه ، فعِظه ، ولا تدعه يتهور .

وأما الرفيق ، فإن كنتَ أعقل منه فأرفقه بعقلك ، وإن كنتَ أحلم منه فأرفقه بحلمك ، وإن كنت أعلم منه فأرفقه بعلمك ، وإن كنت أغنى منه فأرفقه بمالك" [٣].

---

(١)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٢٠ .

(٢)"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ج٨ ، ص١١٢.



– وطالب لكي تدوم الأخوة في الله ، وصلة الرحم والعلاقات الاجتماعية "بالصفح عن عثرات الإخوان" (١). واعتبر ذلك هو"الفتوة" (٢). وحذر من التكلف بين الأهل والناس ، فإن ذلك يقطع العلاقات ويوقفها ، فقال : "إنما تقاطع الناس بالتكلف ، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له ، فيقطعه ذلك عنه" (٣).

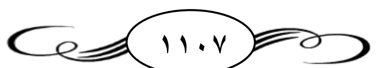
وطالب بمعرفة أخلاق من يؤاخيه الإنسان ، ويتخذه أخاً وصاحباً ، مسانداً في الحياة ، وذلك باختباره في حالة غضبه لا رضاه ، حينها تظهر الطباع والأخلاق الحقيقية للإنسان ، وتقواه أو انعدامها ، فقال :"أنا لا أعتقد أخا الرجل في الرضا ، ولكن أعتقد أخاه في الغضب" (٤).

– لقد كان مدركاً لأهمية الصحبة وضرورتها ، لكنه طالب بالبعد عن المفسدين ، والداعين للبدع الهادمة للدين ، والمضيعة للأمة ، وبين أن ذلك أمر رباني ، تطبيقه عبادة وحماية للإنسان ، وهدم للمبطلين ، بإهمالهم وعدم تكثير سوادهم ، والاستماع لهم .

فقال : "ليس لأحد أن يقعد مع من شاء ، لأن الله يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء : ١٤٠) .

---

(١)"روح البيان" ، ج٤ ، ص٤٨٥.
(٢)"مختصر منهاج القاصدين" ، ص٥١.
(٣)"إحياء علوم الدين" ، ج٢ ، ص٨٩.
(٤)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٦.



وليس له أن ينظر إلى من يشاء ، لأن الله – عَزَّ وَجَلَّ – يقول : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ (النور: ٣٠) .

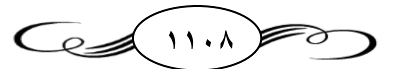
وليس له أن يقول ما لا يعلم ، أو يستمع إلى ما شاء ، أو يهوي ما شاء ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٦) (١).

– وطالب بأداء حق عظيم من حقوق الأخوة ، وهو النصح للأخ والصديق ، وحفظ الحكيم من الأقوال والأعمال ، لإهدائها إليه ، ينتفع بها ، فقال : "نعمت الهدية ، الكلمة من الحكمة ، يحفظها الرجل ، حتى يلقيها إلى أخيه" (٢).

ومن جميل رؤيته لفضل صاحب الفضل ، اعتباره الأخ المحتاج لشيء منك ، فتعطيه له ، هو صاحب المنة عليك ، لأنه أكسب المعطي ثواباً ، ورجا فيه الخير ، وقصده بالسؤال خاصة ، فقال في ذلك :"من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك ، إذا أخذ منك شيئاً ، لأنه لولا أخذه منك ، ما حصل لك الثواب ، وأيضاً ، فلأنه خصك بالسؤال ، ورجا فيك الخير ، دون غيرك" (٣).

ومن فقهه الجميل للتصدق على السائلين ، وجمال فكره ونفسه ، أنه كان يرى فضلاً ومنة للسائلين المحتاجين للصدقة ، حين يأخذونها منه ،

(١)"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٣٩٨ . و"الزهد الكبير" ، للبيهقي ، رقم الأثر ، ٩٣٢.
(٢)"البيان والتبين" ، ج١ ، ص٢٥٨.
(٣)"تنبيه المغتربين" ، ص١٤٢ .



ويستحقون شكره لهم ، فإنهم يكسبون المتصدق أجراً وثواباً يوضع في ميزانه، فهو يعتبر الصدقة مغنماً ومكسباً ، ونعمة ! فقال : "نعم السائلون ، يحملون أزوادنا إلى الآخرة ، بغير أجرة ، حتى يضعوها في الميزان ، بين يدي الله – عَزَّوَجَلَّ –" [١].

– ونبه إلى شرط جديد من شروط الصدق في الأخوة ، لا ننتبه له كثيراً ، وهو التوسعة في إكرام الأخ أخاه عندما يفتقر أكثر من إكرامه في حال غناه ، وعلل الإمام السبب بأن "الفقر أشرف من الغنى ، وصاحبه [الفقير] ، أحق بالإكرام من حيث المقام ، لا من حيث حاجة الفقر" [٢].

– ومن حكمته العجيبة ، وإدراكه العظيم لواقع الناس ، وانتباهه لمكائد الشيطان ومكره ، ما ذكره من خدمة عدو الإنسان له – أحياناً – أكثر من صديقه ، حين يغتابه العدو ، فينال المغتاب في حقه ، حسنات المغتاب ، لذا يجازي المحسن إليه المسيء بالدعاء له بالصلاح ، لا بالهلاك والانتقام ، لأن موته على الباطل يفرح إبليس ، ويتمناه .

وقال في ذلك :"حسناتك من عدوك أكثر منها من صديقك !".

قيل له : وكيف ذلك يا أبا علي ؟.

قال : "إن صديقك إذا ذكرت بين يديه قال : عافاه الله .

وعدوك إذا ذكرت بين يديه ، يغتابك الليل والنهار ، وإنما يدفع المسكين حسناته إليك ، فلا ترض إذا ذكر بين يديك أن تقول : اللهم أهلِكه،

---

(١)"تنبيه المغتربين" ، ص١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٤٤ .



لا ، بل ادع الله له : اللهم أصلحه ، اللهم راجعْ به ، ويكون الله يعطيك أجر ما دعوت به .

فإنه من قال لرجل : اللهم أهلِكه ، فقد أعطى الشيطان سؤاله ، لأن الشيطان إنما يدور على هلاك الخلق !" (١) . ما أحكمك أيها الإمام ! ، وأرأف قلبك !.

٦- تقديمه تجاربه للمجتمع ، تعليماً وإرشاداً .

هذا دور اجتماعي إصلاحي مهم ، من باب كمال التبليغ والبيان للناس ، ونقلاً لعلم أكدته التجربة ، ونبع من القرآن والسنة .

ويعتبر ذلك من باب كتابة السيرة الذاتية ، والتأريخ ، للأعلام .

- من هذه التجارب ، تحذيره من المعاصي وآثارها المدمرة ، المذهبة للسعادة والراحة ، والمعطلة عن العبادة وذوق حلاوتها ، من صلاة وصيام ... إلخ.

ومما قال في ذلك : "إني لأعصي الله ، فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي (٢). لذا كان من دعائه :"أَعِزَّنَا بعز الطاعة ، ولا تذلنا بذل المعصية" (٣).

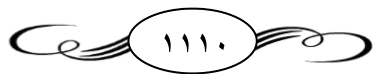
ومن ذلك دعوته كل مسلم إلى مصارحة نفسه وعدم خداعها ، بتوهم الصلاح والاستقامة ، والواقع يكذّب ذلك !.

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٧ .

(٢) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٢٨ . و"جلاء العينين في محاكمة الأحمدية" ، لنعمان بن محمود الأوسي ، ط ١٩٨١م ، مطبعة المدني ، ج١ ، ص١٤٧ .

(٣) "حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١١٢ .



فقال في ذلك :"يا مسكين ، أنت مسيء ، وترى أنك محسن .

وأنت جاهل ، وترى أنك عالم !

وتبخل ، وترى أنك كريم !

وأحمق ، وترى أنك عاقل !

أجلُك قصير ، وأملك طويل ".

وقد علق الإمام الذهبي على كلام الفضيل بتأكيده ، وزاد : :"إي والله صدق ؛ وأنت ظالم ، وترى أنك مظلوم ، وآكِل للحرام ، وترى أنك متورع ، وفاسق ، وتعتقد أنك صالح ، وتطلب العلم للدنيا ، وترى أنك تطلبه لله **!!**" (١).

– ومن تجاربه في طرق الإصلاح بين المتخاصمين ما ذكره لأحد أصحابه ، حيث قال له :"إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً ، فقل : يا أخي ، اعف عنه ، فإن العفو أقرب للتقوى .

فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله .

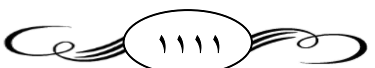
قل : فإن كنت تحسن تنتصر مثلاً بمثل ، وإلا فارجع إلى باب العفو ، فإنه باب أوسع .

فإنه من عفا وأصلح فأجرُه على الله ، وصاحب العفو ينام الليل على فراشه ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور (٢).

---

(١) "سير أعلام النبلاء ..." ، ج٨ ، ص٤٤٠ بتصرف .و"تاريخ الأعلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١١٢ .



– ومن مصارحته القوية للمؤمن ، ليحقق الإيمان ويكمله ، قوله وخطابه للمغرور ، الجاهل :"يا سفيه ، ما أجهلك ؟ ، ألا ترضى أن تقول : أنا مؤمن ، حتى تقول : أنا مستكمل الإيمان ؟!. لا والله ، لا يستكمل العبد الإيمان ، حتى يؤدي ما افترض الله – تعالى – عليه ، ويجتنب ما حرم الله – تعالى – عليه ، ويرضى بما قسم الله – تعالى – له ، ثم يخاف مع ذلك أن لا يتقبل منه" (١).

– وكم دعا إلى مصاحبة الصالحين ، والاستفادة من هديهم ، وحذر من مخالطة ومجالسة المفسدين ، وبين أن مخالطتهم تؤدي إلى اكتساب المخالط لهم باطلهم – غالباً – ، وعدم قدرته على إنكار فسادهم ، وعدم رغبته في ذلك ، رعاية ومجاراة لهم ، فيأثم ويعصي ربه بذلك . فقال:"من خالط هؤلاء لا ينجو من إحدى اثنتين : إما أن يخوض معهم ، إذا خاضوا بالباطل . أو يسكت إن رأى منكراً ، أو سمع منهم شيئاً ، فيأثم به !". أي بسكوته عن الإنكار للباطل .

وقال في ذلك – أيضاً – :"إذا خالطت فلا تخالط إلا حسن الخلق ، فإنه لا يدعو إلا الخير ، ولا تخالط سيء الخلُق ، فإنه لا يدعو إلا إلى الشر" (٢). وحذر من سوء الخلق ، فإنه يفسد الدين ويفضح الحسب ، ويذهب المروءة ، فقال : من "ساء خلقه ، شان دينه ، وحسبه ومروءته" (٣).

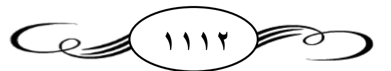
إن على المسلم نبذ وبغض ، واعتزل كل صور ومظاهر ومجالس الكفر والنفاق والفسق ، والداعين إلى ذلك ، وهذه سنة الأنبياء جميعاً ،

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٩٦ .

(٣) "سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٢٦ .



والدعاة الصادقين .

لذا دعا الإمام إلى ذلك – أيضاً – فقال : "طوبى لمن استوحش من الناس [يقصد المبعدين عن الله] ، وكان الله جليسه ، وبكى على خطيئته"(١). وفي رواية :"وأنس بربه" (٢).

إن الحياة الطبيعية للداعية ، بل للمسلم عامة – هي الخلطة الصالحة ، للناس ، وألفة الخير وأهله ، والحركة الشاملة الدائمة في جنبات المجتمعات ، وشئونها ، للإصلاح والتغيير إلى الأحسن ، ومع ذلك ، اعتزال كل ما يسخط الله ، من فكر وأشخاص ومؤسسات شر وفساد ، ودعوة أهلها إلى الإقلاع عن ذلك ، فهما أمران يكمل أحدهما الآخر ، وواجبان شرعيان ، على كل داعية رعايتهما ، باتزان وفهم ، وتمييز وقوة .

٧- إدراكه أهمية الحاكم الصالح في تعمير الديار ونصائحه له .

إن الإمام الفضيل أدرك أثر السلطات الحاكمة العادلة ، في نشر الفضائل والعدل والعافية والعزة في الأمة ، وذكر أنه "لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام ، لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد" (٣). وفي رواية :"لأن به صلاح الرعية ، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد" (٤).

وفي رواية أخرى أنه سئل : لماذا قال ذلك ، فأجاب : "إذا جعلتها

---

(١) "روائع التفسير" ، ج٢ ، ص٧٠ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٨ .

(٢)"تاريخ دمشق" ، ج٤٨ ، ص٤١٠ .

(٣)"جلاء العينين ..." ، للألوسي ، ج١ ، ص١٤٧ . و"تاريخ الإسلام" ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٩١ .

(٤)"البداية والنهاية" ، ج١٠ ، ص٢٢٦ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣٤ ، ٤٣٥ .



(الدعوة) في نفسي لم تَعْدُني ، وإذا جعلتُها في السلطان صلح ، فصلح بصلاحه العباد والبلاد" (١).

فلما سئل : فكيف ذلك يا أبا علي ؟. فسر لنا هذا ؟. قال : "أما صلاح البلاد ، فإنه إذا أمن الناس ظلم الإمام ، عمروا الخرابات ، ونزلوا في الأرض ، لإصلاحها .

وأما صلاح العباد ، فإن الحاكم ينظر إلى ذوي الجهل ، فيرى أنه قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم ، مِن تعلم القرآن وغيره ، فيجمعهم في دور سكنية ، خمسين ، خمسين ، أو أقل أو أكثر ، ويعلِّمهم أمور دينهم ، ويعرفهم أن ذلك هو ما يصلحهم ، وينظر إلى أصحاب الثراء، ويأخذ من زكاتهم ويرد على فقرائهم ، فيكون في ذلك صلاح العباد".

- إن الفضيل يرى إلزامية التعليم ، وهي مسئولية الإمام والدولة . ليتنا نقوم بها !.

وكان بالمجلس ابن المبارك ، فأعجبه بيان الإمام الفضيل ، وسر بذلك ، فقام ، فقبل جبهة الفضيل ، وقال له : "يا معلم الخير ، من يحسن هذا غيرك ؟" (٢).

- إن الفضيل مدرك لكيفية إصلاح واقع البلاد ، بنشر التعمير وإصلاح الأرض ، وإفساح المجال للناس ، لكي يملأوا المجتمع بالخير والتنمية ، وتأمينهم من كل صور الظلم !. وبالتالي لا بطالة ، ولا كسل !!.

أما إصلاح الناس فبتعليمهم شئون دينهم ، والعناية بآخرتهم ،

---

(١)"شرح السنة" ، للبربهاري ، ص١١٧ .

(٢)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٢ .



وكفاية الفقراء مهم ، والمحتاجين ، فإصلاحهم علمياً ومادياً ، وعدم ظلمهم أو إيذائهم ، هو سبيل النجاة والإصلاح . ونظرة الفضيل "نظرة اجتماعية اقتصادية دقيقة".

وقد ذكر الخليفة المأمون أن الرشيد أخبره بأن الفضيل نصحه بصدق . فقال الرشيد في ذلك :"ما رأت عيناي مثل الفضيل بن عياض ؛ دخلت عليه فقال لي : فرِّغ قلبك للحزن والخوف ، حتى يسكناه ، فيقطعاك عن المعاصي ، ويباعداك من النار" [١].

ومرة قال الخليفة هارون الرشيد للفضيل :"ما أزهدك ؟". يمدحه ويثني عليه ، فرد الفضيل ، معلَّما له ، وناصحاً :"أنت أزهد مني !". قال : "وكيف ؟". قال الفضيل : "لأني أزهدُ في الدنيا وهي فانية ، وأنت تزهد في الآخرة ، مع أنها باقية ؟!!" [٢].

وفي رواية أخرى أنه قال للرشيد :"أنت أزهد مني ، لأني أنا زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة ....، فأنا زاهد في الفاني ، وأنت زاهد في الباقي ، ومن زهد في درة أزهد ممن زهد في بعرة" [٣].

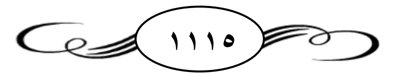
وكان في الرشيد – كما قال د/ عبد الحليم محمود "سحر الدينا ، وكان قلبه – مع ذلك – يتفتح للعظة الخالصة ، خارجةً من قلب مؤمن .

---

(١)"سير أعلام ...." ، ج٨ ، ص٤٣٨ . و"تاريخ الإسلام .." ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٨٦ .

(٢)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٥ .

(٣)"البداية والنهاية" ، لابن كثير ، ج١٠ ، ص٢٢٦ . و"البداية والنهاية" ، ج١٠ ، ص٢٢٦ .



لقد كان [الرشيد] يملك أسباب النعيم الحسي ، في إسراف مسرف ، وكان يتملكه – أحياناً – خوف الله ، فيغمره إحساس ديني عميق ، وتفيض عبراته" .

لذا كان يجل ويعظّم العلماء المخلصين الصادقين ، ويتقبل نصحهم ويقدرهم !. ويذهب هو إليهم طالباً توجيههم ! [(١)]. وقد ذهب ، إلى الحرم المكي ، فاستدعى الفضيل ، فذهب إليه الفضيل ، فوجد الرشيد مع بعض ولده في الحِجر بالحرم ، فسأل الفضيل : "أيكم أمير المؤمنين ؟!". فأشير إلى الرشيد ، فألقى الفضيل السلام عليه : "السلام عليك يا أمير المؤمنين" . فرد عليه وطلب عظة منه . فقال الفضيل له : "يا حسن الوجه ، حساب الخلق كلهم عليك" . فجعل الرشيد يبكي ويشهق . ثم طلب من الفضيل الانصراف ! [(٢)].

وذات مرة أُدخل الفضيل على أمير المؤمنين الرشيد ، فسأل الفضيل الحاضرين : "أيكم هو ؟". فأشاروا إلى أمير المؤمنين ، فقال له الفضيل : "أنت هو يا حسن الوجه ! .

لقد وُليت أمراً عظيماً ، إني ما رأيت أحداً هو أحسن وجهاً منك ، فإن قدرت ألا تسوّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل" .

فقال له الرشيد : عظني !.

فقال الفضيل : "ماذا أعظك ، هذا كتاب الله – تعالى – بين الدفتين، فانظر ماذا عمل بمن أطاعه ، وماذا عمل بمن عصاه" .

---

(١)"الفضيل بن عياض ، صوفي من الرعبل والأول ..." ، مرجع سابق. ص٣١ ، ٣٢.
(٢)"سير أعلام ...." ، ج٨ ، ص٤٤١ .



وأكمل الفضيل نصحه :"إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها – أو أيسر – لنالوها !" .

فطلب منه الرشيد أن يعود إليه ليعظه بعد ذلك مرة أخرى .

فرد عليه الفضيل :"لو لم تبعث إليَّ لم آتك ، وإن انتفعت بما سمعت منى ما عدت إليك" (١).

– ومن عجيب ما حدث من عفة وعزة للفضيل مع الخليفة هارون الرشيد ، حين حج هارون الرشيد ، فذهب لدار الفضيل ، فدق الباب عليه ، فلم يفتح له ، فقال حاجب الرشيد جعفر البرمكي : "افتح الباب لرجل تجب عليك طاعته" .

فعلم الفضيل أنه الرشيد ، ففتح له ، فتحادثا طويلاً ، ثم أمر الرشيد له بعشرة آلاف دينار ، فلم يقبلها الفضيل ، فقال له : "فرّقها على المساكين" . فرد الفضيل عليه : "من جمعها فهو أحق بتفريقها" . ثم غافله الفضيل ، وهرب ، وترك الرشيد في البيت ، فما ظهر الفضيل حتى خرج الرشيد من مكة ! (٢).

وفي مكة لما حج الرشيد – مرة أخرى – ، فطلب أحداً من العلماء يسأله في أمر ، فأتى باب سفيان بن عيينة واستمع إلى نصائحه ، وكذا صنع مع عبد الرازق بن همام ، لكنه لم يقنع بذلك ، فطلب عالمِاً آخر ،

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٥ . و"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٣٦ ، ٤٣٧.

(٢) "إحياء علوم الدين ...." ، ج٣ ، ص٢٠١ .



يسأله ويشفي نفسه ، المحتاجة لعظة مؤثرة نافذة !.

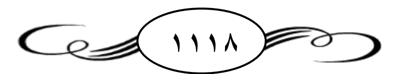
فدل على الفضيل بن عياض ، فأتاه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن ، يرددها فلما قُرع الباب ، وسأل : من الطارق ، قيل له : "أجِب أمير المؤمنين" . فقال : "مالي ولأمير المؤمنين" . فقال له حاجب هارون ، : "سبحان الله !، أمَا عليك طاعة ؟. أليس قد رُوى عن النبي – ﷺ – أنه قال : ليس للمؤمن أن يذل نفسه !" (١).

فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى غرفته ، فأطفأ المصباح ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، "فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هارون إليه : فقال الفضيل له :"يا لها من كف ، ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله – عز وجل – ". فطلب منه الرشيد نصائح وتوجيهات، فذكر له الفضيل ما حدث من عمر بن عبد العزيز عندما ولى الخلافة دعا مجموعة من كبار العلماء ، منهم : سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة ، فقال عمر لهم : "إني قد ابتليتُ بهذا البلاء ، فأشيروا عليَّ" . فعدَّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة!".

وذكر الفضيل للرشيد ما نصح به سالم بن عبد الله عمر بن عبد العزيز ، فقال له سالم : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك من الموت !.

---

(١) سنن الترمذي ت شاكر، أبواب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: ٢٢٥٤، ج٤، ص٥٢٣، ط٢، الحلبي –مصر– ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.



وقال له محمد بن كعب القرظي :"إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوَقِّرْ أباك ، وأكرِم أخاك ، وتحنَّنْ على ولدك" [١].

وقال له رجاء بن حيوة : "إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحِب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكرهْ لهم ما تكره لنفسك ، ثم مِت إذا ما شئت**!**".

– بعد ذكر الفضيل هذه النصائح من هؤلاء العلماء لعمر بن عبد العزيز ، توجه بالكلام المباشر لهارون الرشيد ، فقال له : "وإني أقول لك : إني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام !. فهل معك – رحمك الله – من يشير عليك بمثل هذا **؟!** [٢].

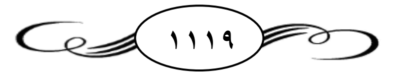
فبكى الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه ، فقال الحاجب ، الفضل بن الربيع للفضيل : "ارفق بأمير المؤمنين **!**". فقال الفضيل له : "يا ابن أم الربيع ، تقتله أنت وأصحابك ، وأرفِق به أنا **!!**".

ثم أفاق الرشيد ، وقال للفضيل : "زدني ، – رحمك الله –" . قال الفضيل له : "يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ، أذكّرك طول سهر أهل النار في النار ، مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء".

---

(١) "صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٣٠ ، ٤٣١ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٥ . و"سير أعلام" ، ج٨ ، ص٤٢٩ ، ٤٣١ .



فلما قرأ عامل عمر كتاب عمر قدم على الخليفة عمر ، فسأله : "ما أقدمك ؟". قال له : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبداً ، حتى ألقى الله – عز وجل – " .

فبكى هارون ، وطلب المزيد من النصح ، فقال له الفضيل : "يا أمير المؤمنين ، إن العباس ، عم المصطفى – صلى الله عليه وسلم – جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقال : "يا رسول الله ، أمِّرني على إمارَة !".

فقال النبي له : "إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعتَ ألا تكون أميراً ، فافعل !"[(١)] .

فبكى هارون بشدة ، وطلب المزيد ، فقال له الفضيل : "يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله – عز وجل – عن هذا الخلْق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل [(٢)].

---

(١) وجدت في كتب السنة ما رواه ابن أبي شيبة وأبو بكر بن الخلال عن محمد بن المنكدر، قال: قال العبَّاسُ يَا رَسُولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ نَفْسٌ تُنجّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا. أنظر: المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، كتاب السير، باب في الإمَارَةِ، رقم: ٣٢٥٤٤، ج٦، ص٤١٩، مكتبة الرشد –الرياض– ط١، ١٤٠٩هـ.

(٢) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٥ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣١ .



وإياك أن تصبح وتمسي ، وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ، فإن النبي – ﷺ – ، قال : "من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة" (١).

فبكى هارون ، وسأل الفضيل " هل عليك ديْن ؟!" . قال الفضيل : "نعم ، ديْن لربي يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم أُلهَم حجتي " (٢).

قال هارون له : "إنما أعني ديْن العباد !". قال الفضيل : "إن ربي لم يأمرني بهذا ، أمر ربي أن أوحّده وأطيع أمره ، فقال – ﷻ – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ (الذاريات : ٥٦– ٥٨) .

فقال هارون له : "هذه ألف دينار ، خذها ، فأنفِقها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادتك" .

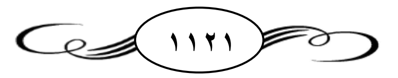
فقال الفضيل له : "سبحان الله ، أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟. سلمك الله ، ووفقك !".

ثم صمت الفضيل ، فلم يكلم هارون ومن معه ، فخرجوا من عنده ،

---

(١) في معناه ما جاء في صحيح البخاري عن معقل بن يسار –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ". صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم: ٧١٥١، ج٩، ص٦٤.

(٢) انظر ، "سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٣٢ . و"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١٠٥ .



وقال هارون للفضل ، حاجبه : "أبا عباس ، إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين !" (١).

فدخلت على الفضيل امرأة من نسائه تطلب منه قبول مال هارون ، فقالت له :"يا هذا ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ، فتفرجنا به !" .

فرد الإمام عليها ، رافضاً طلبها ، وقال :"مثلي ومثلكم ، كمثل قوم، كان لهم بعير ، يأكلون من كسبه ، فلما كبر ، نحروه ، فأكلوا لحمه !".

سمع هارون كلام المرأة للفضيل ، فطمع في قبوله للمال ، وقال : ندخل ، فعسى أن يقبل المال !". فلما علم الفضيل بذلك خرج فجلس على السطح ، على باب الغرفة ، فجاء هارون ، فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه، فلا يجيبه الفضيل !!.

ثم خرجت جارية سوداء ، وطلبت منهم الانصراف ، حتى لا يتأذى الفضيل ، وقالت : "يا هذا ، قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة ، فانصرِف ، رحمك الله". فانصرفوا ! (٢).

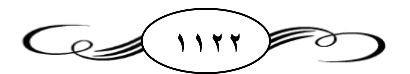
وكان للفضيل حوارات عديدة ونصائح كثيرة للرشيد ، بوجوب العدل وإقامة شرع الله ، ورعاية شئون الرعية بإتقان وإحسان .

إن الفضيل أحب هارون الرشيد ، لخصاله الحميدة ، وفضائله ومكارمه ، وتمنى طول عمره ، وأن يزيد الله حياته من عمر وحياة الفضيل

---

(١)"صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٣١ .

(٢)"صفة الصفوة" ، ج١ ، ص٤٣٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٥ . و"سير أعلام" ، ج٨ ، ص٤٣١ ، ٤٣٢.



نفسه ، وكان يتخوف من اضطرابات ومشاكل في الأمة ، إن مات هارون!. وقد حدث ما توقعه بعد وفاة الرشيد !.

وفي ذلك قال الفضيل :"ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري".

وقد ظهرت فتن واختلافات ، وقويت بدعة القول بخلق القرآن ، وغير ذلك (١).

وما أعظم إمامنا الفضيل حين ينشغل بأمور المسلمين بقوة ، فيتمنى إقامة العدل فيهم ، وإشاعة الحق بينهم ، ويقول في ذلك :"إني لأستحي من الله أن أشبع ، حتى أرى العدل قد بُسط ، وأرى الحق قد قام" (٢).

---

(١)"الاعتقاد القادري" ، لأبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني ، دراسة وتحقيق عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ، ط. جامعة أم القرى ، ١٤٢٧هـ ، ج١ ، ص٢٢٩ . و"البداية والنهاية" ، ج١٠ ، ص٢٣٩ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١٠٨ .



خلاصة الفصل الثاني، والمستفاد منه تربوياً

احتوى هذا الفصل على تفصيل لدور الإمام الفضيل، في المجال التربوي، والمجتمعي.

وقد تمثل هذا الدور في عدة مبادئ، على الدعاة والمصلحين العمل بها، **وهي: -**

١- عدم اكتفائه بالتربية القولية، فجمع معها، التربية العملية، بسلوكه ومواقفه، وتدريبه طلابه ومستمعيه على المكارم الخلقية والفعلية.
لذا كانت رؤيته تؤثر في قلوبهم وسلوكهم، وتزكيهم، أخبروا بذلك، ووردت أقوال لهم.

٢- نبه كثيرًا على أهمية تحصيل العلم المزكي للنفس، والمعرفة الدالة على الله، الدافعة لخشيته تعالى وحبه، وطالب بضرورة العمل بالعلم، وعدم الاكتفاء بتحصيله فقط.

- وحذر العلماء من طمعهم في دنيا الناس، وجعل المال هدفهم، ونسيانهم عظمة دورهم، وأهمية ورعهم، وتعففهم، وأنهم أطباء المجتمع ومصلحوه، ومنقذوه من كل فساد خلقي وقيمي وفكري.

لذا دعاهم إلى دوام تصحيح نياتهم، ومواقفهم، والحفاظ على كرامة العلم، والدين.

٣- قيامه -رحمه الله- بواجب التواصي والنصح لإخوانه العلماء، يصارحهم، بما هم في حاجة إليه، من توجيهات وعظات، بحب وإشفاق. وله في ذلك كلمات ومواقف عديدة.



٤- دعوته إلى مراجعة النفس، ومراقبة الحال، والتفكر في المال. فذلك يُري الإنسان حسناته وسيئاته، مميزاته وعيوبه، فيزداد استقامة وتقل الأخطاء!.

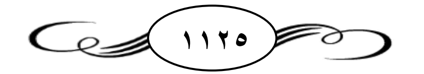
٥- إدراكه أهمية المخالصة والمعاشرة الحسنة لفئات المجتمع، وأداء حقوق الصحبة والجيرة، والأخوة، والحفاظ على النسيج المجتمعي من التمزق والتباغض والشقاق.

لذا بين هذه القضايا بجلاء، وحبذ إلى الجميع التخلق بالصفح والتغافر والبذل.. إلخ.

٦- ما أحوج المجتمع إلى سماع التجارب والخبرات التي يكتسبها الإنسان، واكتساب بينة البصيرة في حياتهم، فيربحوا المعرفة والحياة الجيدة، ويتجنبوا الخسارات في شئونهم الدينية والدنيوية. لذا رأينا الإمام الفضيل يحكي كثيرا مما عاشه واستفاده في دينه ودنياه، قاصدًا تقديم ما ينفع الناس ويصلحهم ويسعدهم.

٧- تقدير الإمام لأثر الحاكم الصالح، ومؤسسات الحكم في إسعاد المجتمعات، بالإعمار، المادي، والخلقي، والقيمي، فكما قال: "بصلاحه، (الحاكم) يصلح العباد والبلاد".

ولذا كان يدعو الأمة، لإدراك ذلك، والحفاظ على الصالحين من الحكام، ودعمهم، ونصحهم، مع الانشغال الدائم، بإصلاح النفس، والواقع.





الفصل الثالث :

دوره الديني ، في تعظيم السنة والصحابة، ومحاربة الابتداع في الدين:

ويحتوي على ثلاثة مباحث :

١- تعظيمه للسنة والصحابة ، وضرورة إتباع هدي النبي – ﷺ – .

٢- بيانه حقيقة الإيمان ، ورده على ضلال المرجئة ، وصفات المؤمن ،

٣- التحذير من الابتداع والمبتدعة ، وآثارهم الخطيرة .



١- تعظيمه للسنة ، وللصحابة ، وضرورة الإتباع .

كان الإمام الفضيل معروفاً بشدة إكباره وإجلاله للحديث النبوي ، سماعاً وتحديثاً وتعليماً ، لذا كان "شديد الهيبة للحديث إذا حدث ، وكان يثقل عليه الحديث جداً ، وربما قال لي : (لإسحاق بن إبراهيم الطبري الراوي للكلام عن الفضيل) :"لو أنك طلبتَ مني الدنانير ، كان أيسر عليَّ من أن تطلب مني الحديث !!" [١]. وفي "حلية الأولياء" : "كان أحب إليَّ من أن تطلب مني الأحاديث" ! [٢]. وكان يقول لأصحاب الحديث ، وهو الثقة الثبت :" لِمَ تُكرهوني على أمر تعلمون أني كاره له ، لو أني أعلم إذا دفعت ردائي هذا لكم ، ذهبتم عني ، لدفعتُه إليكم" [٣].

ومما قاله في توفير وتعظيم الصحابة الكرام ، خاصة آل بيت النبوة، قوله : "إذا نظرت إلى رجل من أصحاب أهل البيت ، كأني أنظر إلى رجل من أصحاب رسول الله – ﷺ – . ودعا الإمام الفضيل إلى اتباع الخلفاء الراشدين في هديهم ، وحبهم ، فقال :"اتبعوا – فقد كُفيتم – ، أبا بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم – " [٤]. ووضح أن الله يحيي البلاد والعباد بأصحاب السنة ، المتمسكين بها ، فقال :"إن لله عباداً ، يحيي بهم البلاد والعباد ، وهم أصحاب السنة" [٥].

---

(١) "سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٨ .

(٢) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٩٥ .

(٤) المرجع السابق ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٥) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٤ .



وكان يعلن محبته لأصحاب النبي محمد ، – ﷺ – ، خاصة أبا بكر وعمر ، وكان يترحم على معاوية بن أبى سفيان ويثني عليه ، وفي ذلك قال : أوثق عملي في نفسي : حب أبى بكر وعمر ، وأبى عبيدة ، وحب أصحاب محمد ، – ﷺ – جميعاً".

وقال عن الصحابي الجليل معاوية :"كان من العلماء ، من أصحاب محمد،– ﷺ –" (١).

<u>٢– بيانه حقيقة الإيمان وصفات المؤمن ، ورده على ضلال المرجئة .</u>

استنكر الفضيل ادعاء المرجئة أن نصوص الوعيد للعصاة ، مقصود بها التهديد ، والتخويف ، وأنه لا حقيقة للوعيد ، وذكر الفضيل أن "المرجئة كلما سمعوا حديثاً فيه تخويف ، قالوا : هذا تهديد !" .

وعقب الإمام بقوله :"إن المؤمن من يخاف تهديد الله وتحذيره وتخويفه ، ووعيده ، ويرجو وعده ، وإن المنافق لا يخاف تهديد الله ولا تحذيره ، ولا تخويفه ولا وعيده ، ولا يرجو وعده" (٢).

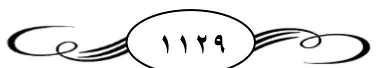
وبين أن المؤمن الحقيقي "يهمه الهرب بذنبه إلى الله ، يصبح مغْموماً ، ويمسي مغموماً" (٣). أي نادماً ، يرجو مغفرة ربه ، متألماً لتقصيره في حق ربه ، فينشط للطاعات .

---

(١) "مجمل اعتقاد السلف" ، د/عبد الله عبد المحسن التركي ، ط٢ ، ١٤١٧هـ ، وزارة الأوقاف ، ص٦٥ .

(٢)الإمام أحمد ، "السنة" ، ج١ ، ص٣٧٧ .

(٣)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٧ .



وبين حقيقة الإيمان الذي يريده الله من عباده ، وبه ينجون من شقاء الدنيا والآخرة ، فقال :"الإيمان : المعرفة بالقلب ، والإقرار باللسان ، والتفضيل بالعمل" .

– لقد كان الإمام الفضيل على علم دقيق بأقوال المبتدعة في حقيقة الإيمان ، فذكر أن "أهل الإرجاء يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، وتقول الجهمية : الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل" .

وقد بين نظرة وموقف أهل السنة من حقيقة الإيمان ، فقال : "ويقول أهل السنة : الإيمان المعرفة والقول والعمل" .

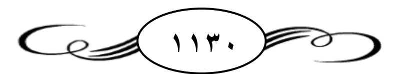
ومما قاله في المسألة أيضاً :"يقول أهل البدع : الإيمان الإقرار بلا عمل ، والإيمان واحد ، وإنما يتفاضل الناس بالأعمال ، ولا يتفاضلون بالإيمان .

ومن قال ذلك فقد خالف الأثر ، ورد على رسول الله – ﷺ – قوله. لأن رسول الله – ﷺ – قال :"الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان" (١).

ولما قرأ الفضيل أول سورة "الأنفال" حتى بلغ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ﴾ (الأنفال : ٤). قال موضحاً حقيقة الإيمان المطلوب شرعاً : "إن هذه الآية تخبرك أن الإيمان قول

---

(١)صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم: ٧٥، ج١، ص٦٣، والإمام أحمد ، "السنة" ، تحقيق د/محمد بن سعيد القحطاني ، ط١، دار ابن القيم، ١٩٨٦م ، الدمام ، ج١ ، ص٣٤٧ .



وعمل، وأن المؤمن إذا كان مؤمناً حقاً فهو من أهل الجنة.

فمن لم يشهد أن المؤمن حقاً من أهل الجنة فهو شاكٌّ في كتاب الله، مكذب به ، أو جاهل لا يعلم .

فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن حقاً ، مستكمل الإيمان . ولا يستكمل الإيمان إلا بالعمل ، ولا يستكمل عبد الإيمان ولا يكون مؤمناً حقاً حتى يؤثر دينه على شهوته . ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه!!".

وأقسم بقوله :"والله لا تكون مؤمناً حقاً ، مستكمل الإيمان حتى تؤدي ما افترض الله عليك ، وتجتنب ما حرم الله عليك ، وترضي بما قسم الله لك ، ثم تخاف مع هذا أن لا يقبل الله منك" (١).

وبشأن الإيمان بصفات الله – تعالى – ، وما جاء عن ذاته العلية ، وتفرده بالخلق والتدبير ، وإرادته ومشيئته ... إلخ ، قال الإمام في ذلك:"ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو ، لأن الله – تعالى – وصف نفسه ، فأبلغ ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ (الإخلاص : ١-٣) . فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه ، وكل هذا النزول والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ، كما يشاء أن ينزل ، وكما يشاء أن يباهي ، وكما يشاء أن يضحك ، وكما يشاء أن يطلع .

فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف . فإذا قال الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه . فقل : بل أؤمن برب يفعل ما يشاء" !!.

---

(١)"السنة" ، للإمام أحمد ، ج١ ، ص٣٤٣ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٠ .



ووضح موقفه من القول بخلق وحدوث القرآن ، حين صدَّق وأقر قول الحارث بن عمير :"من زعم أن القرآن محدَث فقد كفر ، ومن زعم أنه ليس من علم الله فهو زنديق" .

فرد الفضيل مؤكداً بقوله : صدقت" (١).

- لقد اعتنى الفضيل بترسيخ حقائق الإيمان في القلوب ، من صدق ، وتوكل وحسن ظن بالله ، واليقين بقدرته ومنته .

وبشأن كمال التوكل على الله واليأس التام من الخلق ، في مسائل الرزق والعطاء والإنجاء من الكروب ، وغير ذلك قال الفضيل : واللهِ لو يئستَ من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد" (٢).

لذا ركز على غرس هذا المعنى في نفس رجل جاءه يشكو الحاجة، فقال له الفضيل : أمدبراً غير الله تريد؟". يقصد الإمام تنمية الثقة في تدبير الله وحكمته ورحمته في نفسه ، وكمال الاعتماد عليه والرجاء في كرمه وإنعامه ! (٣).

ولما رأى الإمام رجلاً يشكو إلى رجل آخر حاله ، قال له الإمام الفضيل :"تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك" (٤).

---

(١)الإمام الذهبي ، "العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها" ، تحقيق/ أبو محمد أشرف عبد المقصود ، ط١ ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، ١٩٩٥م ، ص١٥٠ .

(٢)"تفسير ابن رجب الحنبلي .." ، "روائع التفسير" ، ج٢ ، ص٥٩٥ .

(٣)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٣ .

(٤)"تاريخ الإسلام .." ، للذهبي ، ج١٢ ، ص١٨٧ .



وقد وضح أن العبد لا يبلغ "حقيقة الإيمان ، حتى يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة ، وحتى لا يبالي من أكل الدنيا ، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله ، – عَزَّ وَجَلَّ – ".

وصاح في مستمعيه وأصحابه بأهمية الزهد في الدنيا ، ليذوقوا حلاوة الإيمان ، فقال لهم : "حرام على قلوبكم أن تصيبوا حلاوة الإيمان ، حتى تزهدوا في الدنيا" (١).

وبيَّن ضرورة جمع المؤمن بين رجائه رحمة وعفو ربه ، وخوفه من غضبه وعذابه ، لكن رأي أن "الخوف أفضل من الرجاء ، ما دام الرجل صحيحاً ، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف".

وما أجمل أمله الكبير في رحمة ربه ، وإن دخل النار ، فقال:"وعزته ، لو أدخلني النار فصرت فيها ، ما أيستُ" !! (٢).

ومما قال في ضرورة مصارحة الإنسان نفسه مناداته لكل مسلم ، بشأن عداوته للشيطان :"يا كذاب ، يا مفتري ، اتق الله ، ولا تسب الشيطان في العلانية ، وأنت صديقه في السر" (٣).

وحذر من اغترار الإنسان بما يعمل من حسنات ، فيشمخ بها ، ويفخر ، ناسياً ضعف إخلاصه ، وعدم إتقان عمله ، وفضل ربه ، وكثرة

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٤ .

(٢)تفسير ابن رجب الحنبلي ، "روائع التفسير" ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٣٢٧ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٨٩ ، ٩٥ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٣ .

(٣)"تفسير القرطبي" ، ج١٤ ، ص٣٢٤ .



ذنوبه ، وعد هذا جهلاً من المغتر ، فقال :"أجهل الناس المدِلُّ بحسناته" (١).

وذكر من صفات المنافقين ، سماتاً خطيرة ، لتجنبها ، فقال : من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه ، ويكره الذم بما فيه ، ويبغض من يبصره بعيوبه ، ويفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه" (٢).

– وبين عدداً من سمات المؤمن ، القدوة .

منها "المؤمن قليل الكلام ، كثير العمل . والمنافق كثير الكلام ، قليل العمل .

كلام المؤمن حِكم ، وصمته تفكر ، ونظره عِبر ، وعمله بِر .

وإذا كنت كذلك ، لم تزَل في عبادة" (٣).

– ومن صفات المؤمن أنه يزرع ويعمل الخير ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف عذابه ، أما المنافق فلا يصنع إلا الشر ، ويترقب النعيم ، وشبه ذلك بتشبيه رائع ، قال فيه :"المؤمن يزرع نخلاً ، ويخاف أن يثمر شوكاً ، والمنافق يزرع شوكاً ، ويطلب أن يثمر رطباً" (٤).

ومما ذكره من الصفات ، سلامة قلب المؤمن من الحسد والرغبة في هتك الأسرار ، والعورات ، فقال :"الغبطة من الإيمان ، والحسد من النفاق ، والمؤمن يغبط ولا يحسد ، والمنافق يحسد ولا يغبط !.

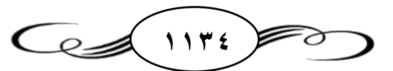
---

(١)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٢٧ .

(٢)"تنبيه المغتربين" ، ص١٠٥ .

(٣)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٨ .

(٤)"تنبيه المغتربين" ، ص٦١ .



والمؤمن يستر ويعظ وينصح ، والفاجر يهتك ويعيّر ويفشي" .

ومن صفات المؤمن ندمه على ذنوبه ، ووجله من ربه ، وتفكيره الدائم في أهمية رجوعه لربه ، ليغفر به ، فقال :"المؤمن يهمه الهرب بذنبه إلى الله ، يصبح مغموماً ، ويمسي مغموماً" .

ويرى أن"المؤمن في الدنيا مغموم ، يتزود ليوم معاده ، قليل فرحه". ثم بكى ! (١).

وحذر من هدم ونسف الأخوة في الله ، بالغيبة فيما بين الأصحاب، فقال :"إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوة في الله" (٢).

وصدق حين ذكر أن"أفضل الأعمال خلاف [مخالفة] الهوى" .

وأنه "ليس في الأرض شيء أشد من ترك شهوة" (٣).

– وحذر كل مسلم من عبودية غير الله ، من بشر أو شهوة أو غير ذلك ، فقال – مستنكراً – : "الرجل عبد بطنه ، عبد شهوته ، عبد زوجته ، لا بقليل يقنع ، ولا من كثير يشبع ، يجمع لمن لا يحمده ، ويقدم على من لا يقدره" (٤). وبين أنه لن يكمل إيمان العبد حتى يؤثر دينه على شهوته وإلا

---

(١)المرجع السابق ، ص٩٥ ، ١١٠ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٧ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٥ .

(٢)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٥ ، ٩٦ .

(٣)تفسير ابن عطية ، المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " ، لابن عطية ، أبو محمد عبد الحق الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ ، ج٥ ، ص٤٢٥ .

(٤)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص٩٨ .



هلك ، فقال : "لن يكمل عبد حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه" .

- وحذر الإمام الفضيل من استصغار العبد ذنبه ، فإن ذلك يسخط الله ، فقال :"بقدر ما يصغر الذنب عندك ، يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله" (١).

وبين خطورة المعاصي وعقوباتها المترتبة عليها ، فكان مما قال من خلال تجربته :"إني لأعصى الله ، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي" .

إنه الإفساد للأحوال ، وتغيرها إلى الأسوأ ، وأخطر من ذلك تبغيض الطاعة للعبد ، وتثقيلها عليه ، فلا يأتيها ، فقال في ذلك :"إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار ، فاعلم أنك محروم ، مكبل ، كبلتك خطيئتك" (٢).

- ومن نصائحه للسالكين طريق الحق والرشاد ما دعاهم إليه من الثبات والتمسك بالهدى ومظاهره ، وإن قل عدد السالكين ، والبعد عن طرق الضالين وأفكارهم ، وإن كثروا وتمكنوا !.

فقال في ذلك :"اتبع طرق الهدى ، ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ، ولا تغتر بكثرة الهالكين" (٣).

وفي رواية :"لا تستوحش طريق الهدى ، لقلة أهله ، ولا تغتر بكثرة

---

(١)"سير أعلام النبلاء" ، ج٨ ، ص٤٢٧ .

(٢)"صفة الصفوة" ، ج٣ ، ص٢٣٨ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص٩٦ .

(٣)الإمام الشاطبي ، "الاعتصام" ، تحقيق ودراسة مجموعة من الأساتذة ، ط١ ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، بالسعودية ، ٢٠٠٨م ، ج١ ، ص١٣٦ .



الناس" [١].

– ونبه الإمام إلى الانتباه الدائم إلى إحسان الله للعبد ، بصرف كثير من الضر عنه وهو لا يشعر .

أخذ الإمام واستنبط ذلك من قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ (المائدة : ١١) [٢].

وحذر المسلم من أن يتصف بالنكران للجميل ، ونسيان الخير الكبير بسبب خطأ واحد أو إساءة واحدة .

وذلك عند تدبره لآية : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (العاديات : ٦). فقال :"الكنود : الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان" .

وطالب المسلم بأن يسعى ليكون شكوراً ، لا كنوداً ،"فالشكور : الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة" [٣].

– وبين ضرورة العناية بالأهل والأولاد ، وكل من يجالسه ، وإدخال الفرحة والهناءة عليهم ، فذلك عبادة عظيمة ، فقال :"لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم خير له من قيام ليله وصيام نهاره" [٤].

---

(١)المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٧٥ .

(٢)"تنبيه المغتربين" ، ص٤١ .

(٣)تفسير البغوي ،"معالم التنزيل في تفسير القرآن" ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق وتخريج محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وغيرهما ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م ، ج٨ ، ص٥٠٩ .

(٤)"جلاء العينين ..." ، ج١ ، ص١٤٧.



- وكان الإمام يرى أهمية تحري الحلال ، وطلبه ، ويعتبر من يصنع ذلك من حزب الله ، فقال :"من كان يعقل ما يدخل جوفه من حله ، كان في حزب الله – تعالى – " (١).

وقال في ذلك :"من عرف كل ما يدخل في جوفه ، كتب عند الله صديقاً ، ومن لم يصحبه الورع في فقره ، أكل الحرام المحض ، ولا يشعر "(٢).

- وكان يعتني بالجهاد ، ويوصي المجاهدين بضرورة إصلاح حالهم مع الله بتوبة نصوح ، مع إعدادهم المادي ، فإن التوبة ترد عنهم ما لا ترده السيوف ، فقال لهم :"عليكم بالتوبة ، فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف" (٣).

ونبه إلى أن الله تعالى ،"يتعاهد عبده المؤمن بالبلاء ، كما يتعاهد الرجل أهله بالخير" (٤).

وبين ضرورة الابتلاء للعبد الداعي إلى الله في الدنيا ، وتوجه الظلم له من البعض ، وذلك دليل احتفاء الله لعبده ، إن قابل ذلك بصبر واحتساب ، فقال :"إذا أراد الله – عز وجل – أن يتحف العبد سلط عليه من يظلمه" (٥).

---

(١)"حلية الأولياء ..." ، ج٨ ، ص١٠٤ .

(٢)"تنبيه المغتربين ..." ، ص١٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٦١ .

(٤)"إحياء علوم ...." ، ج٤ ، ص١٣٣.

(٥)"حلية الأولياء .." ، ج٨ ، ص١٠٤ .



وطالب بالحفاظ على عبادات وطاعات العبد مما يهدمها ويزيل ثوابها ، فذكر أن هناك "ثلاث تهدم العمل الصالح ، ويفطرن الصائم ، وينقضن الوضوء : الغيبة والنميمة والكذب" (١).

– وقد أنكر فعل رجل قعد في بيته ، لا يقوم بكسب أو عمل لينفق على نفسه ، زاعماً أنه يثق بربه وسيأتيه في بيته برزقه ، وقال : إذا وثق بالله حتى يعلم منه أنه قد وثق به ، لم يمنعه شيء أراده ! ، لكن لم يفعل هذا [القصور وعدم الكسب] الأنبياء ولا غيرهم .

وقد كان الأنبياء يؤجّرون أنفسهم ، وكان النبي – ﷺ – يؤجر نفسه ، وأبو بكر وعمر ، ولم يقولوا : نقعد ، حتى يرزقنا الله– عز وجل –" (٢).

– وحذر من إيذاء أحد أو حيوان بغير حق ، فقال :"لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً ، بغير حق ، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات ؟" (٣). وفي رواية :"فكيف تؤذي مسلماً؟. وقال :"لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه" (٤). من عدوانه بغير حق !.

وما أبدع تصويره لابن آدم حين يكون مؤذياً للخلق ، مفسداً ، يجب الفرار منه أشد من الفرار من الأسد ، فقال : إذا رأيت الأسد ، فلا يهولنك ، وإذا رأيت ابن آدم ، فخذ ثوبك ، ثم فِرَّ ، ثم فِرَّ" (٥).

---

(١)"تفسير القرطبي" ، ج٢٠ ، ص٢٣٩ ، بتصرف يسير .
(٢)"روائع التفسير ، ج١ ، ص١٤٩ .
(٣)"تفسير الكشاف ...." ، ج٣ ، ص٥٥٩ . و"سير أعلام .." ، ج٨ ، ص٤٢٧ .
(٤)"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٢٧ .
(٥)"الزهد الكبير ..." ، للبيهقي ، الأثر رقم ، ١٥٢ .



- وطالب الفضيل المسلم بستر حاله المادي ، وعدم فضح نفسه ، وحسن الظن بالله إذا ضاقت معيشته ، فقال :"إن افتقر أحدكم ، فلا يجعل فقره بينه وبين الناس ، وليجعله فيما بينه وبين الله ، لئلا يهون في أعين الناس ، ولو كشف الله الحجاب عن قلب العبد إذا ضيق عليه المعيشة ، ورأى ما أعد الله تعالى له في الجنة ، لسأله أن يزيده من الضيق في الدنيا " [1].

<u>٣- التحذير من الابتداع والمبتدعة ، وآثارهم الخطيرة .</u>

حمل الإمام الفضيل على المبتدعة والابتداع حملات متكررة قوية ، بياناً لهم ، ولشرورهم ، ودحضاً لشبهاتهم . وقرر عدة مبادئ مهمة في ذلك الشأن.

١- وضح أن إعانة المبتدع هدم للإسلام وحبوط للعمل .

إن الفضيل رأي خطورة إعانة المبتدع ، المفسِد لدين الله ، فإن ذلك هدم للإسلام !. وذكر أن حب المبتدع يحبط العمل ، ويخرج نور الإسلام من القلب .

ومما قاله في ذلك : "من أحب صاحب بدعة ، أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه" [2].

٢- بيانه عدم قبول الله عمل المبتدع .

وقال في ذلك : "لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عمل"

---

(١)"تنبيه المغتربين ..." ، ص٢٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج٨ ، ص١٠٣ .



.

٣- ضرورة مقاطعة المبتدعة – زجراً لهم وتحقيراً – ، وعدم التبسم في وجوههم .

قال في ذلك : "إذا رأيت مبتدعاً في طريق ، فخذ في طريق آخر" . وفي رواية :"إذا رأيت صاحب بدعة في طريق ، فجز في طريق غيره". وقال : من تبسم في وجه مبتدع فقد استخف بما أنزل الله على محمد – ﷺ – .

٤- نزول اللعنة على المبتدع وعلى من يجالسه مقراً بها ، وعمى قلبه ، وحرمانه الحكمة . وقال في ذلك : "لا تجلس مع صاحب بدعة ، فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة" . وقال : "من جلس مع صاحب بدعة ورَّثه العمَى !". "ومن جلس مع صاحب بدعة لم يُعطَ الحكمة" (١). وقال : "صاحب بدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره في أمرك" .

٥- عدم اتباع جنائزهم .

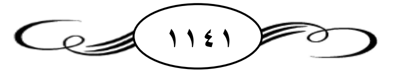
قال في ذلك :"من تبع جنازة مبتدع لم يزل في سخط الله حتى يرجع" .

٦- ثناؤه – رحمه الله – على المبغض للمبتدعة ، المعرض عنهم .

أثنى الفضيل كثيراً على من يعرضون عن المبتدعة ،

---

(١)"شرح السنة" ، أبو محمد الحسن بن على البربهاري ، ص١٣٧ ، ١٣٧ . و"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٣ .



ويبغضونهم ، ومما قال في ذلك : "إذا علم الله – عَزَّ وَجَلَّ – من الرجل أنه مبغض لصاحب بدعة غُفر له وإن قل عمله" .

وقال : "من أعرض بوجهه عن صاحب بدعة ملأ الله قلبه إيماناً ، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر". "ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنة مائة درجة" (١).

٧- وجوب عدم إعلاء شأن المبتدعة .

– ما أحكمه حين حذر من إعلاء شأن المبتدع ، وجعله محل مشاورة أو إعظام ، وقد عد ذلك الإعلاء له غشا للدين والأمة ، فقال :"من أتاه رجل فشاوره ، فدله على مبتدع ، فقد غش الإسلام" (٢).

وأعلن حبه للصحابة الكرام ، أتباع النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ومن يحبهم الله ، وبغضه أهل الأهواء المنحرفين عن هدي الإسلام ، فقال :"إني أحب من أحبهم الله ، وهم أصحاب محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وأبغض من أبغضه الله ، وهم أصحاب الأهواء والبدع" (٣).

– وأجمل موقفه من المبتدعة الضالين ، من وجوب مقاطعتهم وإعلان بغضهم ، والتحذير من مجالستهم ، والقعود معهم والتودد لهم ، فقال في ذلك :"لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب إليَّ من أن آكل عند صاحب بدعة . فإني إذا أكلتُ عندهما لا يُقتدي بي . وإذا أكلتُ عند

---

(١) المرجع السابق ، للبربهاري ، ص١٣٧ ، ١٣٨ . و"سير أعلام ..." ، ج٨ ، ص٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٢)"حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٣ .

(٣)المرجع السابق ، ص١٠٤ .



صاحب بدعة اقتدي بي الناس !".

وتابع بيان موقفه :"أحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد . وعمل قليل في سنة خير من عمل صاحب بدعة .

ومن جلس مع صاحب بدعة لم يُعط الحكمة ، ومن جلس إلى صاحب بدعة ، فاحذره ، وصاحب بدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره في أمرك . ولا تجلس إليه ، فمن جلس إليه ورَّثه الله – عز وجل – العمى !" .

وبين العاقبة الحسنة لمن يبغض البدعة وأهلها ، فقال :"إذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له ، وإن قل عمله ، فإني أرجو له . لأن صاحب السنة يعرض كل خير . وصاحب البدعة لا يرتفع له إلى الله عمل ، وإن كثر عمله .

وقال في ذلك – أيضاً – : "فانظر مع من يكون مجلسك ، لا يكون مع صاحب بدعة ، فإن الله تعالى لا ينظر إليهم ، وعلامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعة . وأدركت خيار الناس ، كلهم أصحاب سنة ، وهم ينهون عن أصحاب البدعة" (١).

---

(١) "حلية الأولياء" ، ج٨ ، ص١٠٣ ، ١٠٤ . و"تاريخ الإسلام" ، ج١٢ ، ص١٨٧ ، ١٨٨ .



خلاصة الفصل الثالث، والمستفاد منه تربوياً

اشتمل هذا الفصل على عدة قضايا مهمة، من أهمها ما يلي:-

١- دور الإمام الفضيل في الحث على العلم بالسنة وتطبيقها، وضرورة تعظيم الصحابة الكرام، وإجلالهم، ومعرفة قدرهم الكبير.

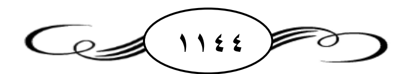
٢- بيانه حقيقة الإيمان، وصفات المؤمن، وتصدية للمبتدعة في مجال العقائد، خاصة المرجئة والجهمية، وقد حذر من صفات المنافقين وآثارهم في المجتمع.

٣- التحذير من الابتداع في الدين، وتوضيحه السبيل الصحيح للتعامل مع المبتدعة.

وهذا يدعو كل مصلح ومربي إلى العناية بهذه القضايا الحيوية، المتعلقة بالحفاظ على المصدر الثاني للشريعة والسنة النبوية، بتعليمها للمجتمع، وتربيتهم على أنوارها، وحب الصحابة وتبجيلهم، وعدم السماح بالنيل منهم، فإنهم تلاميذ النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحاملو الرسالة مع نبيهم، وناشروا الإسلام في أنحاء الدنيا.

- وعلى كل داع العناية ببيان حقائق الإيمان الصحيح، المطلوب اعتقاده، وتطبيقه في واقع الحياة، وإسعاد المجتمع بصفات المؤمنين وأخلاقهم.

مع محاربة كل انحراف عن حقائق الإيمان، من بدع وتصورات فاسدة، قديمة كانت أو حديثة، مثل: الإلحاد



بأشكاله الجديدة، والزندقة، والنفاق، والتشكيك في الثوابت الإسلامية.. إلخ، ليسلم للمؤمنين إيمانهم، ويستقر مجتمعهم، وينعم بالأمن والتقدم.

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع المربي الحكيم سيدنا الفضيل بين عياض ، أرى أهمية العناية بالجانب الروحي ، أو التربية الروحية ، وتزكية النفس من جانب الدعاة والعلماء .

فإن التربية الإيمانية هي الركيزة الأساس التي ينبغي أن تبنى عليها الدعوة إلى الله .

وهي معينة على تطهير النفوس ومداواة عللها ، والسمو بها بعيداً عن الشهوات الآثمة ، وهي الضمانة الضرورية لبناء الصف ، وتوحد القلوب ، خاصة عند تباين الاجتهادات في العمل للإسلام والدعوة إلى الله .

وأرى أهمية تدريس نماذج من القدوات المصلحة الهادية ، والمثل الفاضلة ، للتأسي والاقتداء من الأجيال الصاعدة في كل المراحل التعليمية ، وعناية الإعلام بذلك ، ودور المعلم والدعوة .

ولابد من إبراز رموز معاصرة أمينة ، وفيه لدينها وأمتها ، وما أكثرهم . وحعل توقير رموزنا المادية والمعنوية قيماً راسخة في نفوس كل المسلمين .

إن هناك من يسعى إلى وصم تاريخنا كله ، وعظمائنا من الأنبياء والمرسلين وتابعيهم ، بكل نقيصة ، محاولين هدم النماذج والرموز ، وإسقاط القمم الشامخة الزاكية .

وقد لمست ورأيت ذلك كثيراً ، من خلال كتب وصحافة وقنوات ، مفسدة كاذبة آثمة.

إنهم لا يسأمون من ذلك ، ويقيمون حملات متتابعة لكسر شوكة



الأمة ، وهزيمتها نفسياً وفكرياً ومادياً .

وهذه محاولة مني ، أدعو الله أن ينفعني بها ، وأن يتقبلها ، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ... اللهم آمين .

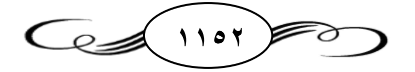
مراجع البحث

م	اسم المرجع
١	"الاعتصام" للإمام الشاطبي ، تحقيق ودراسة مجموعة من الأساتذة ، ط١ ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، بالسعودية ، ٢٠٠٨م .
٢	"الاعتقاد القادري" ، لأبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني . دراسة وتحقيق عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ، ط. جامعة أم القرى ، ١٤٢٧هـ .
٣	"البداية والنهاية" ، لابن كثير ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
٤	تاريخ الإسلام ، ووفيات المشاهير والأعلام" ، للذهبي ، ط المكتبة التوفيقية . ١٩٣٧م .
٥	تاريخ مدينة دمشق" ، لابن عساكر ، تحقيق محب الدين العمري ، دار التفكير بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥م .
٦	تفسير ابن عطية ، المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " ، لابن عطية ، أبو محمد عبد الحق الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ .
٧	تفسير الثعلبي المسمى : "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" ، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٢م .
٨	تفسير الزمخشري ، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" ، للزمخشري ، ، أبو القاسم محمود بن عمرو ، ط٣، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .

٩	تفسير القرآن العظيم لابن كثير" ، تحقيق سامي سلامة ، ط١ ، دار طيبة للنشر ، السعودية ، ١٩٩٩م.
١٠	تعظيم الله جل جلاله ، تأملات وقصائد" أحمد بن عثمان المزيد الوطن للنشر ، الرياض ، ٢٠١١م .
١١	تفسير القرآن" ، لمنصور بن محمد السمعاني ، تحقيق ياسر إبراهيم وغنيم عباس ، ط١، دار الوطن ، الرياض ،١٩٩٧م .
١٢	تنبيه المغتربين" الإمام عبد الوهاب الشعراني ، تحقيق وضبط د أحمد عبد الرحيم السائح ، والمستشار توفيق وهبة ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠٥م .
١٣	"تهذيب التهذيب" ، لابن حجر العسقلاني ، ط دار الفكر .
١٤	الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، تحقيق أحمد البردوني وغيره ، ط٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٥	"جلاء العينين في محاكمة الأحمدية" ، لنعمان بن محمود الأوسي ، ط ١٩٨١م ، مطبعة المدني .
١٦	"حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" ، لأبي نعيم ، أحمد بن عبد الله ، الأصبهاني ، ط دار الفكر للطباعة.
١٧	"الدر المنثور في التفسير بالمأثور" ، لجلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، ط. دار الفكر ، بيروت .
١٨	"ركائز الإيمان بين العقل والقلب" ، الشيخ الغزالي .
١٩	"روح البيان" ، إسماعيل حقي الأستانبولي الحنفي ، ط. دار الفكر ، بيروت.

٢٠	"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" ، للألوسي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢١	"زاد المسير في علم التفسير" ، لجمال الدين أبو الفرج ، عبد الرحمن بن علي الجوزي ، تحقيق / عبد الرزاق المهدي ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢٢هـ .
٢٢	"الزهد الكبير ..." ، للبيهقي ، ط١ ، دار الجنان ، بيروت ، تحقيق عامر أحمد حيدر .
٢٣	"السنة" ، الإمام أحمد تحقيق د/ محمد بن سعيد القحطاني ، ط١ ، ١٩٨٩م ، دار ابن القيم ، الدمام
٢٤	"سير أعلام النبلاء" ، للذهبي ، تحقيق محمود شاكر ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ، دار إحياء التراث العربى .
٢٥	"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ، لابن العماد الحنبلي ، ط مكتبة القدس ، ١٣٥٠هـ .
٢٦	"شرح الرسالة القشيرية" ، للشيخ زكريا الأنصاري ، الدروبي ، دمشق .
٢٧	"طبقات الصوفية" ، للسلمي ، تحقيق نور الدين شريبة ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ .
٢٨	"الطبقات الكبرى" ، لابن سعد ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، ١٩٩٨م ، دار صادر ، بيروت .
٢٩	"العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها للإمام الذهبي" ، تحقيق محمد أشرف عبد المقصود ، ط١ ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، ١٩٩٥م .
٣٠	"الفضيل بن عياض ، صوفي من الرعيل الأول" / عبد الحليم محمود ط٢ ، ٢٠٠٠م

	، عربية للطباعة والنشر .
٣١	مجلة الأزهر ، ج٣ ، س ٩٥، ربيع الأول ١٤٢٣هـ = أكتوبر– نوفمبر ٢٠٢١م .
٣٢	"مجمل اعتقاد السلف" ، د/عبد الله عبد المحسن التركي ، ط ٢ ، ١٤١٧هـ ، وزارة الأوقاف .
٣٣	معالم التنزيل في تفسير القرآن ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق وتخريج محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وغيرهما ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م .
٣٤	"المنهج القويم في اقتضاء الصراط المستقيم" ، لشيخ الإسلام ، ابن تيمية ، تأليف محمد بن على بن أحمد ، بدر الدين البعلي ، تحقيق على بن محمد العمران ، ط١ ، دار عالم الفوائد للنشر ، مكة ، ١٤٢٢هـ . المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع ، القاهرة .
٣٥	"موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية" أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، ط١ ، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع ، القاهرة .
٣٦	"ميزان الاعتدال ، في نقد الرجال" ، للذهبي ، تحقيق محمد علي البجاوي ، ط١ ، ١٣٨٠ هـ ، دار المعرفة ، بيروت .
٣٧	"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" ، للذهبي .
٣٨	"النكت والعيون" ، تفسير الإمام أبو الحسن على بن محمد الماوردي" ، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم ، ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت .
٣٩	وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان" ، لابن خلكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨م .



محتويات البحث



١- تواضع الإمام – رحمه الله – .
٢- هوان الدنيا في قلبه ، وزهده .
٣- اقتداؤه بالسابقين من صحابة، وتابعين .
خلاصة الفصل الأول، والمستفاد منه تربويًا
- الفصل الثاني: دوره التربوي والمجتمعي . ويحتوي على عدة مباحث:
١- التربية العملية لطلابه وسامعيه .
٢- تنبيهه إلى أهمية العلم وآدابه والعمل به.
٣- نصحه لإخوانه العلماء.
٤- ضرورة التفكر ومراجعة النفس والحال.
٥- تقدير الصحبة ، ورعاية حقوق الأخوة .
٦- تقديمه تجاربه للمجتمع ، تعليماً وإرشاداً .
٧- إدراكه أهمية الحاكم الصالح ، ونصحه له.
خلاصة الفصل الثاني، والمستفاد منه تربويًا
- الفصل الثالث: دوره الديني في إحياء السنة ومحاربة الابتداع



في الدين، ويحتوي على ثلاثة مباحث :
١– تعظيمه للسنة والصحابة، وضرورة الإتباع .
٢– بيانه حقيقة الإيمان، ورده على ضلال المرجئة، وصفات المؤمن .
٣– التحذير من الابتداع والمبتدعة وأثارهم الخطيرة.
خلاصة الفصل الثالث، والمستفاد منه تربويًا
– الخاتمة.
– مراجع البحث.
– فهرس البحث.

